



سُورَةُ الْفَتْحِ

حين يبدو الرجوعُ هزيمةً
ويكون عند الله بداية النصر



تأليف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ



سُورَةُ الْفَتْحِ

حِينَ يَبْدُو الرُّجُوعُ هَزِيمَةً وَيَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ بَدَايَةَ النَّصْرِ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بعض الفتوح تأتيك والأبواب مفتوحة، فتراها بعينك قبل أن يحتاج قلبك إلى تفسيرها.
وبعضها يأتيك في صورة بابٍ أغلق.
وطريقٍ انقطع.
ورغبةٍ تأخرت.

ومشهدٍ لو حكمت عليه بعين اللحظة لقلت: هذه خسارة.
ثم تمضي الأيام، وتنقش غيوم الحدث، فإذا بما حسبته رجوعاً كان تقدماً من نوع آخر،
وبما ظننته حرماناً كان حماية، وبما أحنزك لأنه لم يقع في موعده كان يهياً لك في صورة
أوسع وأرحم وأبقى.

ومن هذا الموضع تبدأ سورة الفتح.
لا تبدأ من ساحة امتلأت بالغنائم.
ولا من مكة وقد فتحت أبوابها.
ولا من عدوٍ ألقى سلاحه.

بل تبدأ من الحديبية؛ من لحظة كان ظاهرها قادراً على إرباك الحساب البشري كله.
خرج رسول الله ﷺ وأصحابه يريدون البيت الحرام، يحملون نية العمرة، لا نية الحرب.
وساروا بشوقهم إلى مكة، ثم وقفوا عند حدود الأمانة. منعوا من الدخول، وحيل بينهم
وبين البيت، وجرى صلح اشتملت بعض بنوده على ما ثقل على نفوس المؤمنين، حتى بدا
المشهد في ظاهره أبعد ما يكون عن الصورة التي يتخيلها الناس حين يسمعون كلمة: النصر.
وفي تلك اللحظة بالذات نزل من السماء حكمٌ آخر على الحدث:
﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾.

وهنا تبدأ السورة بهدم واحدة من أعمق أوهام الإنسان:
أن الحقيقة هي دائماً ما يراه الآن.
فالإنسان يرى مقطعاً صغيراً من الطريق، ثم يريد أن يحكم على القصة كلها.
يرى باباً مغلقاً فيسميه نهاية.
ويرى تأخراً فيسميه حرماناً.

ويرى اضطراراً إلى التراجع فيحسبه هزيمة.
أما الله فيرى أول الطريق وآخره، وما ظهر منه وما خفي، وما وقع وما مُنع من الوقوع،
والأرواح التي تنتجو، والقلوب التي ستدخل في رحمته، والفتوح التي ستولد من رحم
التأخير.

ولهذا فإن سورة الفتح ليست سورة نصرٍ عسكري فحسب.
إنها سورة تصحيح البصيرة أمام القدر.
تعلمك أن السؤال ليس دائماً:
ماذا حدث؟

بل:

ماذا يصنع الله بهذا الذي حدث؟
فقد يكون الفرق بين المؤمن وغيره أن كليهما يرى الواقعة نفسها، لكن أحدهما يحبسها
داخل ظاهرها، والآخر يترك في قلبه مساحة لعلم الله الذي يتجاوز ما يرى.
ولهذا ستكرر في السورة معانٍ لا تبدو لأول وهلة من مفردات النصر:
السكينة.

والإيمان.

وحسن الظن بالله.

والوفاء بالعهد.

والطاعة.

والتقوى.

ورضا الله.

وعلم الله بما في القلوب.

حتى يبدو كأن القرآن يريد أن يقول لنا إن الفتح لا يبدأ حين تتغير خريطة الأرض، بل
حين تتغير خريطة القلب.

فإذا ينفع الإنسان أن يدخل المدينة التي يريد، وهو لم يدخل بعد إلى مقام الثقة بالله؟

وماذا ينفعه أن يغلب خصمه، وهو مغلوب أمام خوفه وهواه؟

وماذا يصنع بالنصر من لم يتعلم كيف يحمل القوة دون أن تطغيه، وكيف يملك القدرة ثم
يكف يده حين تكون الحكمة في الكف؟

ولهذا كان من أوائل ما نزل في السورة بعد إعلان الفتح:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وكان الفتح الأول وقع هناك.

في مساحة لا تراها الجيوش.

في القلب.

ففي اللحظة التي اضطربت فيها حسابات الأرض، أنزل الله من السماء شيئاً لا يُرى، لكنه
غير وزن المشهد كله:

السكينة.

وهذه إحدى أعظم رسائل السورة للإنسان في كل زمان:
قد لا يزيل الله العاصفة فوراً، لكنه قد ينزل في قلبك سكوناً أكبر منها.
وقد لا يفتح الباب في الساعة التي تريد، لكنه يعطيك من اليقين ما يجعلك قادراً على
الوقوف أمام الباب المغلق دون أن يتغلق قلبك معه.

ومن هنا تصبح سورة الفتح سورة كل إنسان وقف يوماً أمام شيء لم يفهمه.

سورة من دعا فتأخرت الإجابة.

ومن سار ثم اضطرب إلى الرجوع.

ومن ظن أن الفرصة ضاعت.

ومن رأى ميزان القوة مختلاً.

ومن وقف أمام خصم أكبر منه.

ومن انتظر وعداً صحيحاً، لكنه أخطأ في تقدير مواعده.

ومن سأل في ليلة طويلة:

لماذا لم يحدث ما كنت أرجوه، مع أنني سعت إليه بصدق؟

فتأتيه السورة لا تمتنحه جواباً تفصيلياً عن كل قدر، بل لتعطيه شيئاً أعمق:

ميزاناً يقرأ به الأقدار.

وستصل معه في إحدى عباراتها إلى الجملة التي تكاد تختصر فلسفة السورة كلها:

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾.

أربع كلمات تهدم غرور العقل دون أن تلغيه.

فأنت مأمور أن تفكر.

وأن تحسب.

وأن تخطط.

وأن تستشير.

وأن تنظر في المآلات.

لكن بعد أن تفعل ذلك كله، يبقى وراء علمك محيط لا تصل إليه:

ما لم تعلم.

وقد يكون هناك، في المنطقة التي لا تراها، تفسير التأخير كله.

كان المؤمنون يريدون دخول مكة.

لكن في مكة رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات لم يعلموهم.

وكانت هناك دماء يمكن أن تسفك بغير علم.

وكانت هناك قلوب سيأتياها الإيمان بعد ذلك.

وكان هناك فتح سيولد قبل الفتح الذي ينتظرونه.
 فإذا بالتأخير ليس فراغاً.
 بل تدبيراً مزدحماً بالأسرار.
 وسنتعلم في هذه الرحلة كذلك أن سوء الظن بالله ليس خاطراً عابراً دائماً، بل قد يكون بآباً
 تسرب منه الهزيمة إلى القلب قبل أن تقع في الخارج.
 فلما نقفون والمتخلفون رأوا المشهد نفسه الذي رآه المؤمنون.
 لكن المؤمنين نزلت عليهم السكينة.
 وآخرون ملؤوا مساحة الغيب بظن السوء.
 الموقف واحد.
 لكن القلبين مختلفان.
 ومن هنا تعلمنا السورة أن الحدث لا يصنع الإنسان وحده؛ بل الطريقة التي يستقبل بها
 الإنسان الحدث.
 قد تأتي المحنة لرجلين.
 فتصنع في أحدهما إيماناً مع إيمانه.
 وتصنع في الآخر مزيداً من الارتياب.
 وقد يتأخر الشيء نفسه عن قلبين.
 فيقول الأول:
 لعل لله تدبيراً لا أراه.
 ويقول الآخر:
 ضاع كل شيء.
 والفرق بين الجملتين ليس مجرد تفاؤل وتشاؤم.
 إنه فرق في معرفة الله.
 ثم تأخذنا السورة إلى منطقة أخرى شديدة الحساسية:
 منطقة الأعداء.
 فالإنسان ليس دائماً صريحاً مع نفسه.
 قد يخاف، ثم يسمي خوفه حكمة.
 ويتخلف، ثم يسمي تخلفه انشغالاً.
 ويقدم مصلحته، ثم يصنع حولها خطاباً أخلاقياً محترماً.
 ولهذا يكشف القرآن أولئك الذين قالوا:
 ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾
 ثم لما ظهرت المغامم قالوا:

﴿ذُرُونَا تَتَّبِعُكُمْ﴾.

فإذا بالمصلحة تنفض ما ستره الكلام.
وهنا تصبح سورة الفتح رحلة في تحرير الإنسان من الكذب على نفسه.
فالخطأ الذي تعترف به قد نتوب منه.
أما الخطأ الذي بنيت حوله منظومة من التبريرات، فقد يصعب عليك حتى أن تراه.
ثم، مع كل هذا الكشف الصارم، لا تغلق السورة باب العودة.
حتى المتخلفون يقال لهم:
﴿سَتُدْعُونَ﴾.

ستأتي فرصة أخرى.
وسياأتي امتحان جديد.
ويمكن لمن أخفق بالأمس أن يصدق اليوم.
وكان القرآن يرفض أن يجعل ماضي الإنسان سجناً له.
تسقط؟

قم.
تضعف؟
صح.
تتحلف؟

استعد للنداء القادم.
فالله لا يكشف عيوبنا ليحبسنا داخلها، بل ليحررنا منها.
وفي مقابل أولئك المتخلفين تقيم السورة مشهداً آخر تحت شجرة بسيطة في صحراء الحديبية.
أيدٍ تمتد إلى رسول الله ﷺ.
وبيعة.

وعهد.
ثم تنزل من فوق سبع سماوات شهادة لا يساويها شيء من مدائح الأرض:
﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾.

جفاة يرتفع معنى النجاح كله.
لم تعد الغاية أن يقال:

انتصروا.
بل:

رضي الله عنهم.
 وكم تتضاءل أمام هذه الكلمة كل الجوائز التي يطاردها الإنسان.
 فالفتح الأعلى ليس أن يفتح لك الله أبواب الدنيا.
 بل أن يفتح لك باب رضاه.
 ثم يكشف سر تلك المنزلة:
 ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.
 لا ما في أيديهم فقط.
 ولا ما قالته ألسنتهم.
 بل ما في القلوب.
 وهنا يتضح أن سورة الفتح، مع كل ما فيها من حركة التاريخ والجيوش والصلح والمغانم،
 هي في جوهرها سورة القلوب.
 قلب تسكنه السكينة.
 وقلب يسيء الظن.
 وقلب يفي بالعهد.
 وقلب يصنع الأعذار.
 وقلب يحمل الحمية.
 وقلب يلزم كلمة التقوى.
 وقلب يعلم الله صدقه، فينزل عليه من السماء ما لا تستطيع الأرض أن تعطيه.
 ثم تعلمنا السورة شيئاً آخر لا يقل دهشة:
 أن النصر ليس دائماً أن تقع المعركة وتنتصر فيها.
 أحياناً يكون النصر أن لا تقع المعركة أصلاً.
 ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾.
 فقد يكون من نعمة الله عليك أن يمنع خصمك منك.
 وقد يكون من نعمته الأكبر أن يمنع يدك أنت من فعلٍ كنت قادراً عليه، لكنه كان
 سيفتح باباً من الشر لا تراه.
 وهنا ترتقي السورة بتصور القوة.
 فالقوة ليست أن تفعل كل ما تستطيع.
 القوة أحياناً أن تستطيع، ثم تملك نفسك.
 وليست الشجاعة أن تشتعل عند كل استفزاز.
 ففني الحديدية كان هناك فريق امتلاً:

﴿الْحِمَى حِمَى الْجَاهِلِيَّةِ﴾

وفي الجانب الآخر:

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

حمية تصعد من غرور النفس.

وسكينة تنزل من عند الله.

وهنا يظهر نوعان من القوة:

قوة تضج.

وقوة تعرف كيف تصمت.

قوة يريد صاحبها أن ينتصر لنفسه.

وقوة تريد أن يبقى الحق هو المنتصر حتى لو اضطرت النفس إلى ابتلاع شيء من كبرائها.

ثم تأتي السورة قرب نهايتها لتصيح خطأ آخر في علاقتنا بالوعد.

رأى رسول الله ﷺ أنه سيدخل المسجد الحرام.

وخرج المؤمنون يرجون الدخول.

ثم لم يقع في ذلك العام.

فهل أخلف الوعد؟

حاشا.

بل قال الله:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾.

كانت المشكلة في توقيت ظنه الإنسان، لا في الوعد.

وهذه لطيفة نحتاجها في حياتنا كثيراً.

فكم من شيء رجوانه من الله، ثم حددنا له من عند أنفسنا صورة وموعداً وطريقاً، فإذا لم

يأت وفق الخطة التي في أذهاننا اضطربنا.

وسورة الفتح تعلمنا أن نفصل بين:

وعد الله.

وتوقعنا نحن لكيفية تحقق الوعد.

ثم تنتهي السورة بصورة مدهشة.

لا بصورة حصن يسقط.

ولا براية ترفرف.

ولا بخزائن تفتح.

بل بصورة:

زَرْعٌ. ﴿كَرَّرَ أَنْجَحَ شَطْأَهُ فَأَزْرَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾.

وهنا ربما تعطينا الخاتمة مفتاح السورة كلها.

فالفتح يشبه الزرع.

البذرة حين توضع في التراب تبدو للناظر كأنها اختفت.

لكن اختفاءها ليس موتاً.

هناك في الظلام شيء يبدأ.

تنشق البذرة.

ويمتد الجذر.

ثم يخرج الشطء.

ثم يؤازر بعضه بعضاً.

ثم يستغلظ.

ثم يقوم على ساقه.

ثم يعجب الزراع.

وهكذا كانت الحديبية.

بدت في ظاهر الأرض تراجعاً.

لكن تحت تراب القدر كانت جذور الفتح تمتد.

ومن هنا ستكون رحلتنا في هذه السورة محاولة للإنصات إلى ما يجري تحت سطح الحدث.

سنقف عند الكلمات.

وعند حركات القلوب.

وعند الفروق الدقيقة بين السكينة والحمية، وبين العذر والصدق، وبين حسن الظن وسوء

الظن، وبين القوة والحكمة، وبين ما نعلم وما يعلمه الله.

وسنحاول، مع كل آية، ألا نسأل فقط:

ماذا كانت تقول لأصحاب الحديبية؟

بل:

ماذا تقول لنا نحن حين نقف أمام حديبتائنا الصغيرة والكبيرة؟

تلك اللحظات التي نطرق فيها باباً فلا يفتح.

ونمضي إلى غاية فنعود قبل بلوغها.

ونظن أن شيئاً فات.

ثم لا نعلم أن الله، في الجانب الذي لا تصل إليه أبصارنا، ربما يكون قد بدأ بالفعل يكتب

لنا شيئاً اسمه:

الفتح.

فلندخل السورة من أول كلماتها، لكن بقلب مستعد لأن يعيد النظر في تعريفه للنصر.
فربما خرجنا منها ونحن ندرك أن أعظم الفتوح ليست دائماً ما نفتح نحن.
بل ما يفتحه الله فينا:

من يقين بعد شك.

وسكينة بعد اضطراب.

وبصيرة بعد حيرة.

ورضا بعد مقاومة.

وثقة تقول، حين تعجز عن تفسير الطريق:

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ
وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾

تبدأ سورة الفتح بما يشبه المفاجأة.

فالحظة التي نزلت فيها هذه الكلمات لم تكن - في ظاهرها - لحظة دخولٍ إلى مكة، ولا لحظة انتصارٍ عسكريٍّ صاحب، ولا لحظة انهيارٍ للعدو أمام المؤمنين.

بل كانت في أعقاب الحديبية؛ حين عاد المسلمون من الطريق، وقد منعوا من دخول مكة، ورضوا بشروط رأى بعضهم فيها قسوة على نفوسهم.

وهنا نزل القرآن ليصحح للإنسان تعريفه للانتصار:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾.

وكان أول درس في السورة:

ليس كل ما يبدو لك تراجعاً هزيمة،

ولا كل ما يبدو لك انتصاراً فتحاً،

فقد ترى أنت جداراً مغلقاً، بينما يرى الله وراءه طريقاً واسعاً قد بدأ بالفعل.

إضاءة لغوية | ﴿فَتَحْنَا﴾

الجزء ف ت ح يدور حول إزالة الإغلاق وإيجاد المنفذ بعد انسداده.

تقول العرب: فتح الباب، إذا أزال ما يمنع الدخول.

ومن هذا المعنى المادي انتقل اللفظ إلى معانٍ أوسع: فتح البلاد، وفتح أبواب الرزق،

والفتح بالحكم والقضاء، وفتح ما استغلق من الأمر.

ومن هنا تبدو الكلمة في الآية أعمق من مجرد «النصر».

فالنصر قد يكون غلبةً في مواجهة، أما الفتح فهو أن يُزال الحاجز الذي كان يمنع المستقبل من أن يبدأ.

ولهذا كان صلح الحديبية فتحاً؛ لأنه لم يكن نهاية معركة فحسب، بل كان فتحاً للطريق الذي سيأتي بعده.

هدأت الحرب، واختلط الناس بعضهم ببعض، وانتشر الإسلام، واتسعت دائرة الدعوة، ثم لم تمضِ إلا مدة قصيرة حتى جاء فتح مكة نفسه.
وهنا لطيفة دقيقة:

قال:

﴿فَتَحْنَا﴾

بصيغة الماضي.

مع أن كثيراً من ثمار هذا الفتح لم تكن قد ظهرت بعد.
وكان الوعد الإلهي إذا انعقدت أسبابه في قدر الله صار من اليقين حتى يُعبر عنه بما يُعبر به عن الأمر الذي وقع وانتهى.

أنت ما زلت ترى أول الطريق.

لكن الله يرى نهايته.

وقد يكون الشيء عندك «لم يبدأ بعد»، بينما يكون في ميزان القدر قد بدأ منذ اللحظة التي لم تفهم معناها.

اللطيفة التدرية | قد يأتي الفتح متكرراً

من أخطر ما يربك القلب أن يكون له شكل محدد للنصر.

يدعو الله، ثم يتخيل كيف يجب أن تأتي الإجابة.

يرجو الفرج، ثم يرسم الباب الذي ينبغي أن يفتح.

فإذا جاءه قدر الله من باب آخر ظنه حرماناً.

وهنا تعلمنا الحديبية شيئاً مذهباً:

ربما كان المؤمنون يريدون دخول مكة،

والله يريد أن يدخل الإيمان إلى قلوب آلاف البشر.

كانوا يريدون عمرةً في ذلك العام،

والله كان يهيئ فتحاً يغيّر وجه الجزيرة كلها.

كان نظر الإنسان متعلقاً بالمشهد القريب.

وكان تدبير الله متعلقاً بما سيولد من ذلك المشهد.

ولهذا فالإيمان ليس فقط أن تثق بالله عندما تأتي الأشياء كما تريد.

الإيمان الأعظم أن نثق به حين لا تفهم لماذا جاءت الأشياء على هذا النحو. قد يكون بعض أعظم الفتح في حياتك قد دخل عليك أول مرة في ثياب الخيبة.

الرسالة الواقعية

حين يُغلق أمامك طريق لا تجعل تفسيرك الأول هو تفسيرك النهائي. قد تخسر فرصة، أو يتعطل مشروع، أو تفشل محاولة، أو تُدفع إلى مسار لم تختره. تعامل مع الواقع، وابذل أسبابك، ولكن لا تقل سريعاً: «انتهى الأمر».

فالحديبية تعلمك أن السؤال الأعظم ليس:

ماذا خسرنا الآن؟

بل:

ما الذي يمكن أن يكون الله قد فتحه لنا بهذا الذي حدث؟

ليس المطلوب أن نسمي كل خسارة فتحاً؛ فذلك تبسيط مخل.

ولكن المطلوب ألا نحكم على قدر ما ونحن لا نزال واقفين في أول صفحته.

ثم تأتي الآية الثانية:

﴿لِيَعْرِفَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

وهنا ينتقل السياق من الفتح في الخارج إلى بناء الإنسان في الداخل.

مغفرة.

وتمام نعمة.

وهداية.

ثم نصر.

وكأن القرآن يقول:

لا تنظر إلى النصر على أنه تغير في ميزان القوى وحده.

فالفتح الحقيقي يبدأ من علاقة العبد بربه، ثم يمتد أثره إلى العالم.

إضاءة لغوية | ﴿وَيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾

الإتمام هو بلوغ الشيء حده الذي يكمل به.

فقد تبدأ النعمة، لكن تمامها شيء آخر.

قد يعطيك الله أول الطريق، ثم يهيئك لتحمل آخره.

قد يمنحك الرسالة، ثم يمنحك التمكين لها.

وقد يعطيك الهداية، ثم يزيدك ثباتاً وبصيرةً ونصراً.

والتعبير بـ:

﴿يَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾

يثبي بأن النعمة الإلهية ليست دائماً عطيةً واحدة منفصلة، بل قد تكون مشروعاً من التدبير يتشكل عبر الزمن.

نعمة ابتدأت منذ سنوات، ولا تعرف أنت بعد إلى أي كمال يريد الله أن يبلغ بها. والمدهش أن من مراحل إتمام النعمة نفسها ما قد يبدو في أثناء وقوعه شاقاً. فالحدبية بما فيها من صبر وضبط للنفس كانت جزءاً من تمام النعمة. وهذا يغير مفهومنا للنعمة.

ليست النعمة دائماً شيئاً مريحاً. أحياناً يكون من تمام نعمة الله عليك أن يريك قبل أن يعطيك.

اللطيفة التدريية | أعظم الفتوح ما أصلحك أنت

تجاور في الآيات أربع عطايا:

المغفرة.

وتمام النعمة.

والهداية.

والنصر.

وليس هذا التجاور عابراً.

فالقرآن لا يريد أن يصنع إنساناً يبحث عن الانتصار الخارجي وهو خرب الداخل. ما قيمة أن تفتح لك الأرض ويظل قلبك مغلقاً؟

وما قيمة أن تنتصر على خصمك وأنت مهزوم أمام هواك؟

وما قيمة أن تتوسع إمكاناتك ويضيق طريقك إلى الله؟

لهذا جاء الفتح محاطاً بالمغفرة والهداية.

وكان أعظم صورة للنصر:

أن يفتح الله لك باباً في الدنيا دون أن تغلق الدنيا قلبك عنه.

الرسالة الواقعية

لا تجعل معيار نجاحك محصوراً فيما حصلت عليه.

حين تنجح في مشروع، اسأل:

ماذا صنع هذا النجاح في أخلاقي؟

وحين تتجاوز أزمة، اسأل:

هل خرجت منها أقرب إلى الله أم أشد قسوة؟

وحين تتسع لك الحياة، أسأل:

هل اتسعت معها بصيرتي؟

فالنعمة التي تكبر حولك ولا يكبر بها قلبك قد تتحول إلى امتحان.

أما تمام النعمة فهو أن يعطيك الله الشيء، ثم يعطيك القلب الذي يعرف كيف يحمله.

ثم تختتم هذه البداية المهيبة:

﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

إضاءة لغوية | ﴿عَزِيزًا﴾

مادة ع ز ز تدور حول القوة والمنعة والغلبة.

والعزیز هو الممتنع الذي لا يُنال بسهولة، والقوي الذي لا يُقهَر.

فليس المعنى مجرد:

«وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ».

بل:

﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

أي نصرًا موصولًا بالعزة والمنعة، لا نصرًا هشًا عابرًا ينهار عند أول اختبار.

والمفارقة العجيبة أن هذا «النصر العزیز» يُعلن في لحظة كان ظاهرها الخارجي لا يشبه الصورة المعتادة للنصر.

وهنا يبلغ درس السورة ذروته المبكرة:

قد تبدأ العزة من اللحظة التي نتعلم فيها ألا تستفرك المظاهر.

اللطيفة التدريبية | النصر يبدأ قبل ظهور نتيجته

هناك نصر يحدث في القلب قبل أن يحدث في الواقع.

حين تستطيع أن تضبط غضبك لله، فهذا نصر.

حين تستطيع أن تقبل حكم الله مع أن نفسك تريد غيره، فهذا نصر.

حين تحافظ على ثباتك بينما تتغير الظروف، فهذا نصر.

حين لا تجعلك الخسارة المؤقتة تتخلى عن مبادئك، فهذا نصر.

وفي الحديبية انتصر المسلمون أولاً على الاندفاع في داخلهم.

ثم جاء نصر التاريخ بعد ذلك.

وهذه سنة عميقة:

كثير من الانتصارات الخارجية لا يولد إلا بعدما يقع الانتصار الداخلي.

فالإنسان الذي لا يستطيع إدارة نفسه عند ساعة الاستفزاز قد يضيع باندهاق لحظة ثمرة سنوات.

الرسالة الواقعية

لا تسأل في أزماتك فقط:

متى سيتغير الواقع؟

اسأل كذلك:

ما الذي يريد الله أن يتغير في وأنا أنتظر تغير الواقع؟

ربما تأخر الباب لأنك تهبأ لما وراءه.

وربما طال الطريق لأن المسافة لا تصنع الوصول فقط، بل تصنع المسافر الذي يستطيع أن يحتمل الوصول.

وهنا تضع الآيات الثلاث الأولى قاعدة سورة الفتح كلها:

ليس الفتح أن يحدث كل شيء كما خططت.

الفتح أن يجري قدر الله، ثم تكتشف بعد حين أن الطريق الذي كنت تظنه التفافاً كان هو الطريق الأقصر إلى الوعد.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

كأنها كلمة تقال لكل قلب مؤمن يحدق في باب مغلق:

لا تحكم على القصة من منتصفها.

فربما كان ما تسميه اليوم إغلاقاً هو أول حركة خفية في باب عظيم بدأ الله يفتحه لك. ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾

بعد أن أعلنت السورة الفتح قبل أن تكتمل صورته في أعين الناس، تنتقل مباشرة إلى شيء أعمق من حركة الجيوش والاتفاقات والسياسة:

القلب.

فالحديدية لم تكن امتحاناً عسكرياً فقط.

كانت امتحاناً نفسياً شديداً.

خرج المؤمنون يريدون البيت الحرام، يحملون الشوق قبل السلاح، ويرون أنفسهم على حق، ثم يمنعون من مكة، وتأتي شروط الصلح على صورة ثقيلة على النفوس.

وفي مثل هذه اللحظات لا يكون أخطر ما يهدد الإنسان هو خصمه في الخارج.
بل الاضطراب الذي يبدأ في داخله.

ولهذا لم يقل القرآن أولاً: هو الذي أنزل النصر.

بل قال:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وكان أول مدد إلهي في ساعة الفتنة ليس أن تتغير الظروف.

بل أن يثبت القلب أمامها.

إضاءة لغوية | «السَّكِينَةُ»

السكينة من مادة س ك ن.

وأصلها يدل على الثبات بعد الحركة، والهدوء بعد الاضطراب.

ومنها:

السكن؛ لأن الإنسان يستقر فيه.

والسكون؛ لأنه انقطاع الحركة.

لكن «السكينة» في القرآن أعمق من مجرد الهدوء النفسي.

إنها طمأنينة ينزلها الله على القلب في ساعة كان المتوقع فيها أن يرتجف.

ولهذا قال:

﴿أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾.

فالسكينة هنا ليست مهارة نفسية يصنعها الإنسان لنفسه وحده.

إنها عطاء منزل.

كأن القلب في بعض المحن يصل إلى نقطة لا تكفي فيها الحسابات، ولا الجمل التحفيزية، ولا تحليل الاحتمالات.

فيأتيه من الله شيء لا يستطيع صاحبه دائماً أن يشرحه.

تبقى المشكلة كما هي.

لكن الرعب منها يتراجع.

يبقى الطريق مجهولاً.

لكن القلب لا يعود تائهاً.

يبقى الخضم في مكانه.

لكن شيئاً داخلك صار أصلب منه.

تلك هي السكينة.

اللطفية التدبيرية | الله لا يزيل العاصفة دائماً، لكنه قد يسكن قلبك داخلها

نحن عادة ندعو الله أن يغير الواقع.

أن يزيل الخطر.

أن ينهي الأزمة.

أن يفتح الباب.

وهذا كله مشروع.

لكن القرآن يكشف نوعاً آخر من الاستجابة:

أن تبقى الظروف على شدتها، وينزل الله في داخلك قوة لا تشبه الظروف.

في الحديبية لم تتغير الوقائع فور نزول السكينة.

مكة لم تفتح في تلك اللحظة.

والشروط لم تختف.

والموقف بقي ثقیلاً.

لكن شيئاً حاسماً حدث:

ثبتت القلوب.

وهذا في ذاته فتح.

فالإنسان لا يهزم دائماً حين يُغلب في الخارج.

قد تكون هزيمته الحقيقية حين ينهار في الداخل.

وقد لا ينتصر دائماً حين تتغير الظروف لصالحه.

قد يكون انتصاره الأول حين لا تسمح للظروف أن تسلبه يقينه.

ولهذا كانت السكينة إحدى جنود الله الخفية.

الرسالة الواقعية

حين تدخل أزمة، لا تجعل دعائك كله متعلقاً بتغيير الخارج.

قل في قلبك أيضاً:

يا رب، إن لم ترفع الآن ما حولي، فلا تتركه يهدم ما في داخلي.

قد تمر بمرض في أسرة، أو خسارة، أو خصومة، أو انتظار طويل، أو مشروع مهدد، أو

قرار لا تعرف مآله.

وفي مثل هذه المواطن، قد تكون أعظم إجابة عاجلة أن يعطيك الله قلباً يستطيع أن يعيش

المرحلة دون أن ينهار.

ليس معنى السكينة أنك لا تحزن.

ولا أنك لا تخاف.

ولا أنك لا تتألم.

بل أن توجد تحت كل ذلك أرض ثابتة من اليقين لا تسقط.

ثم يقول تعالى:

﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾.

وهذه من أجمل الجمل في وصف طبيعة الإيمان.

الإيمان ليس حالة جامدة.

إنه قابل للزيادة.

وينمو.

ويتقوى.

وتضيف إليه التجارب الصادقة طبقات جديدة من اليقين.

إضاءة لغوية | ﴿لِيَزَادُوا﴾

الزيادة ليست إنشاء شيء من العدم.

بل إضافة شيء إلى شيء موجود.

ولهذا قال:

﴿إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾.

كان عندهم إيمان قبل الحديبية.

لكن الحديبية صنعت لهم إيماناً جديداً فوق إيمانهم.

وكان هناك معارف عن الله لا تتعلمها من القراءة وحدها.

تتعلمها عندما تدخل الامتحان.

كنت تعرف أن الله يدير.

ثم تمر بمرحلة لا ترى فيها التدبير، ثم تتكشف لك الحكمة.

فتعود العبارة نفسها — «الله يدير» — لكنها لم تعد في قلبك بالمعنى القديم.

كانت معلومة.

وصارت تجربة.

كنت تعرف أن الله يكفي عبده.

ثم تقع في موقف تنقطع فيه الأسباب، ثم يأتيك من لطف الله ما لم تتوقع.

فتصبح عبارة:

«الله يكفي»

أثقل في ميزان قلبك من قبل.

وهذا معنى دقيق من معاني:
﴿لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾.

الحنة لا تأتي دائماً لتختبر ما عندك فقط.
قد تأتي لتضيف إليك ما لم يكن عندك.

اللطيفة التدبيرة | بعض اليقين لا يولد إلا بعد المرور

هناك فرق بين أن تعرف الطريق على الخريطة، وأن تمشيه.
وفرق بين أن تقرأ عن البحر، وأن تركب البحر.
وفرق بين أن تؤمن بوعده الله من حيث المبدأ، وأن تقف في لحظة يبدو فيها كل شيء مخالفاً للوعد ثم ترى الوعد يتحقق.
الحياة الإيمانية ليست معلومات تتراكم فقط.
إنها مواقف تُترجم فيها المعرفة إلى يقين.
ولهذا لا تستغرب إن وجدت أن بعض أقوى الناس إيماناً هم أكثرهم مروراً بالامتحانات.
لم تمنحهم الحن الإيمان من العدم.
لكنها نزعته عن إيمانهم كثيراً من الهشاشة.

الرسالة الواقعية

بدل أن تسأل بعد كل محنة:
ماذا أخذت مني؟
أسأل أيضاً:
ماذا أضافت إليّ؟
هل صرت تعرف نفسك أكثر؟
هل عرفت موطن ضعفك؟
هل تعلمت أن بعض الناس لا يُعول عليهم؟
هل تعلمت أن ما ظننته نهاية كان بداية؟
هل صار دعاؤك أصدق؟
هل أصبح تعلقك بالله أقل نظرية وأكثر حياة؟
ربما خرجت من الأزمة بأموال أقل، أو فرص أقل، أو تعب أكثر.
لكن إذا خرجت منها بإيمان أكثر، فأنت لم تخرج منها كما دخلتها.
ثم تأتي الجملة المهيبة:
﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وهذه العبارة وحدها تكفي لتصحيح ميزان القوة كله.

إضاءة لغوية | ﴿جُنُودٌ﴾

الجند هم المجتمعون لنصرة أمرٍ أو تنفيذ سلطان.

وحين يقول الله:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

فالمراد أوسع بكثير من الجيوش التي نعرفها.

الملائكة من جنوده.

والربح من جنوده.

والمطر من جنوده.

والخوف الذي يلقيه في قلب ظالم من جنوده.

والسكينة التي ينزلها في قلب مؤمن من جنوده.

والأسباب التي تراها من جنوده.

والأسباب التي لا تراها من جنوده.

بل قد يكون تأخر شيء جنداً.

وقد يكون اجتماع القلوب جنداً.

وقد يكون اختلاف أعدائك جنداً.

وقد تكون كلمة واحدة تفتح قلب إنسان جنداً.

ولهذا فإن المؤمن لا يحسب القوة بالعدد الظاهر فقط.

لأنه يعرف أن جزءاً هائلاً من معادلة الكون خارج مجال رؤيته.

اللطيفة التدبيرية | لا تحصر جنود الله في الصورة التي نعرفها

نحن نحب النجاة بالطريقة التي نفهمها.

نريد سبباً واضحاً.

وحليفاً واضحاً.

وطريقاً واضحاً.

لكن الله يفتح أحياناً بأشياء لم تخطر لك أصلاً.

ومن أعمق الطمأنينة أن تعرف أن الله لا يحتاج إلى الأسباب التي تراها حتى ينصرك.

أنت تحتاج إليها.

أما هو سبحانه نفالقتها وخالق آثارها.

ولذلك حين تضيق الحسابات البشرية، لا يعني ذلك أن الحساب الإلهي قد ضاق.

الإنسان يقول:

لم يبق شيء.
ويقول الإيمان:
بل بقي رب كل شيء.

الرسالة الواقعية

لا تحتقر سبباً صغيراً إذا ساقه الله إليك.
ولا تياس لأن الأسباب الكبيرة غابت.
افعل ما تستطيع.
خذ بالأسباب.
خطط.
استشر.
تحرك.
لكن لا تجعل قلبك عبداً للسبب.
فالسبب باب.
وليس رباً.

ومن أعظم التحرر الإيماني أن تستعمل الأسباب دون أن تعبدها من الداخل.
ثم يقول سبحانه:
﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾.

وهنا تعيد السورة تعريف الفوز.
مرة أخرى.
فالفتح في الدنيا ليس نهاية القصة.
ومكة ليست نهاية الطريق.
والنصر السياسي أو العسكري ليس الغاية العليا.
هناك ميزان آخر:
﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾.

إضاءة لغوية | ﴿فَوْزاً﴾
الفوز في أصل استعماله يدل على الظفر المطلوب مع النجاة من المكروه.
فهو ليس مجرد الحصول.
بل الحصول مع السلامة.

ولهذا كانت الجنة هي الفوز الكامل:

نال العبد ما يرجو.

ونجا مما يخاف.

وحين أضاف الله:

﴿عَظِيمًا﴾

سقطت أمام هذه الكلمة مقاييس الدنيا كلها.

فالذي قد يسميه الناس فوزاً ربما لا يساوي شيئاً إذا خسر الإنسان نفسه.

والذي قد يسمونه خسارة ربما يتقلب عند الله فوزاً أبدياً.

اللطيفة التدبيرة | لا تسمح للدنيا أن تعرف لك النجاح

الناس يضعون مقاييس:

مال.

منصب.

شهرة.

غلبة.

انتشار.

امتلاك.

والقرآن لا يترك قيمة النعمة في الدنيا، لكنه يرفض أن تكون الدنيا هي المحكمة النهائية.

قد يصفق الناس لإنسان خاسر عند الله.

وقد يمر بينهم إنسان لا يعرفونه، واسمه عند الله في أهل الفوز.

ومن هنا ينبغي للمؤمن أن يسأل دائماً:

أنا أتقدم في نظر من؟

في نظر الناس؟

أم عند الله؟

وتأمل القيد:

﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾.

فكأنه يطلب منك أن تنقل ميزانك من الأرض إلى السماء.

الرسالة الواقعية

راجع تعريفك الشخصي للنجاح.

لا تجعل كل أهدافك مما ينتهي عند الموت.

اجعل في جدول حياتك أشياء لا تظهر في سيرتك المهنية، لكنها تظهر في صحيفتك عند الله:

صلاة أخشع.

ذنب تتركه.

رحم تصلها.

مظلوم تنصره.

قلب تعفو عنه.

قرآن تحفظه.

سر بينك وبين الله لا يعرفه أحد.

فهذه قد تكون أثقل من إنجازات كاملة يصفق لها الناس.

ثم تعرض السورة الوجه المقابل:

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾.

وها نحن نصل إلى واحد من أخطر أمراض القلب في السورة:

سوء الظن بالله.

إضاءة لغوية | ﴿ظَنَّ السَّوْءِ﴾

الظن هو ما يعقده القلب تجاه أمر لم تنكشف له كل تفاصيله.

وهنا تظهر خطورة الامتحان:

حين تغيب عنك الصورة الكاملة، ماذا تظن بالله؟

المؤمن لا يعرف كل شيء.

والمنافق لا يعرف كل شيء.

لكن الفرق بينهما يظهر في المسافة التي يملأها القلب عندما تغيب المعلومات.

المؤمن يملؤها بالثقة.

والمنافق يملؤها بسوء الظن.

ولهذا كانت الحديبية كاشفةً لا منشئةً فقط.

كشفت ما في الصدور.

من عرف الله قال:

لله حكمة وإن لم أرها.

ومن امتلأ قلبه بالريبة قال:

ضاع الأمر.

اللطيفة التدريبية | الامتحان يكشف الصورة التي تحملها عن الله

حين تسير حياتك كما تريد، يصعب أحياناً أن تعرف حقيقة ظنك بالله.
لكن عندما يتأخر الجواب، وتضيق الطرق، وتختلط الإشارات، يظهر ما في القلب.
هل تظن أنه نسيتك؟
هل تظن أنه تركك؟
هل تظن أن الطاعة أضاعتك؟
هل تظن أن تدبيره أقل رحمة من اختيارك لنفسك؟
أم تقول:
لا أفهم.
لكنني أعرف من هو الله.
وهذه عبارة فارقة.
قد لا تعرف ماذا يفعل الله بك.
لكن يكفيك أن تعرف من هو الله.
ومن عرف أسماء وصفاته، لم يجعل ظلمة اللحظة تحو نور معرفته بربه.

الرسالة الواقعية

راقب حديثك الداخلي في أوقات التأخر.
فبعض الناس لا ينطق بسوء الظن، لكنه يعيشه.
كلما تأخرت الإجابة قال في نفسه:
لن يحدث خير.
كلما أغلق باب قال:
انتهى كل شيء.
كلما تعثر قال:
أنا متروك.
وهذه ليست مجرد أفكار عابرة دائماً.
قد تكون مرآة لعلاقة القلب بالله.
درب نفسك أن تستبدل الجملة:
«لماذا فعل الله بي هذا؟»
بسؤال أعمق:
«ماذا يريد الله أن يعلنني من هذا؟»
ليس لأن كل الألم ينكشف سره سريعاً.
بل لأن المؤمن لا يجعل جهله بالحكمة دليلاً على غياب الحكمة.

وتختتم الآية بصورة شديدة:

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾.

إضاءة لغوية | ﴿دَائِرَةُ﴾

الدائرة من الدوران.

أي أن السوء الذي ظنوه بالمؤمنين يدور حتى يعود عليهم.
وهذه صورة قرآنية مذهشة.

الإنسان يطلق ظنه السيئ في اتجاه غيره.

ثم تدور الأيام.

وتدور الأسباب.

وتدور المقادير.

ثم يرجع عليه ما كان يتمناه لغيره.

وكأن في التعبير معنى:

لا تستعجل نهاية الحكاية.

فالأيام دائرة.

والله هو الذي يكتب مواضع النهاية.

اللطيفة التدبيرية | بين السكينة وسوء الظن

هذه الآيات تضع أمامنا قلبين في المشهد نفسه.

نفس الحدث.

نفس الطريق.

نفس الحديبية.

نفس الشروط.

لكن قلباً نزلت فيه السكينة.

وقلباً امتلأ بسوء الظن.

وهنا إحدى أعظم حقائق التربية القرآنية:

ليست الأحداث وحدها هي التي تصنع الإنسان؛ بل المعنى الذي يستقبل به الإنسان الأحداث.

قد تمر المحنة نفسها على شخصين.

فتزيد الأول إيماناً.

وتزيد الثاني قسوة.

تجعل الأول أقرب إلى الله.

وتجعل الآخر أبعد.
تفتح للأول باباً.
وتغلق على الثاني قلبه.
ولهذا قال عن المؤمنين:
﴿لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾
وقال عن الآخرين:
﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءَ﴾.
المشهد واحد.
لكن القلوب ليست واحدة.

الرسالة الواقعية الجامعة للآيات

حين تضطرب الحياة حولك، ابحث أولاً عن السكينة قبل أن تبحث عن السيطرة.
وحين يطول الامتحان، اسأل كيف يزداد إيمانك بدل أن تشغل فقط بموعد انتهائه.
وحين تبدو موازين القوى ضدك، تذكر:
﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
وحين تنجح، لا تجعل نجاح الدنيا يحجب عنك:
﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.
وحين يعجز عقلك عن تفسير الطريق، فلا تملأ فراغ المعرفة بسوء الظن.
قل:

قد لا أعرف أين يقودني هذا الطريق.
لكنني أعرف من يقود الطريق.

وهكذا تأخذنا سورة الفتح منذ بدايتها من فتح الطريق إلى فتح القلب.
فليس كل باب عظيم يفتحه الله يبدأ بصوت المفاتيح.
بعض الأبواب تبدأ بشيء هادئ جداً:
سكينة تنزل في القلب.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا
وَنَذِيرًا ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

تعود السورة مرة أخرى إلى العبارة نفسها:
﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وقد وردت قبل آيتين فقط.

والتكرار في القرآن ليس حشواً، بل إعادة للمعنى في موضع جديد ليؤدي وظيفة جديدة.

في المرة الأولى جاءت العبارة بعد إنزال السكينة:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ... وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

فكان السكينة نفسها جند من جنود الله.

أما هنا فتأتي العبارة بعد ذكر مصير المنافقين والمشركين، وقبل بيان رسالة النبي ﷺ.

وكانها تقرر حقيقة أكبر:

هذا الدين لا يقف في التاريخ بلا سند.

ورسالته ليست معلقة بقوة البشر وحدهم.

فالذي أرسل الرسول هو نفسه الذي له جنود السماوات والأرض.

وهذا يمنح الرسالة طمأنينة لا تأتي من عدد الأتباع، ولا من موازين القوى، ولا من حسابات السياسة.

إضاءة لغوية | ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

ختمت الآية السابقة بقول الله:

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

وهنا يقول:

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

فجاءت الحكمة ثابتة في الموضعين، وتغير الاسم الآخر.

هناك: عليماً.

وهنا: عزيزاً.

وهذا من دقة النظم.

فحين كان الحديث عن السكينة وتدير القلوب قال:

عليماً حكيماً؛

لأنه يعلم ما في القلوب، ويعلم حاجتها، ويعلم متى تنزل السكينة وكيف.

وحين عاد الحديث إلى الجنود والقوة والنصر قال:

عزيزاً حكيماً؛

لأن ملك الجنود يناسبه ذكر العزة والقوة والمنعة.

لكن العزة لم تأت وحدها.

جاءت معها:

الحكمة.

وهذه إضافة عظيمة.

فالله قادر، لكنه لا يفعل عبثاً.

عزيز، لكن عزته لا تنفصل عن حكمته.

قد يملك القدرة على تعجيل شيء ثم يؤخره لحكمة.

وقد يملك القوة لإزالة خصم ثم يبقيه زمناً لحكمة.

وقد يملك تغيير المشهد كله في لحظة، ثم يدير الأحداث على مهل؛ لأن التربية نفسها جزء من الغاية.

وهنا يتعلم المؤمن ألا يقيس حكمة الله بمجرد سرعة ظهور النتيجة.

اللطيفة التدبيرة | ليست كل قدرة عاجلة التنفيذ

نحن نتعامل أحياناً مع قدرة الله بمنطقنا البشري.

نقول في داخلنا:

إذا كان الله قادراً، فلماذا لم يحدث التغيير الآن؟

لكن الآية تجمع لك كلمتين لو استقرتا في قلبك استقام كثير من فهمك للقدر:

عزيزاً حكيماً.

قادراً لا يُغلب.

حكيماً لا يضع شيئاً في غير موضعه.

فإن تأخر ما تريد، فليس لأن القدرة نقصت.

وإن طال الطريق، فليس لأن الأمر خرج من يد الله.

وإن بقيت بعض العقبات، فليس معناها أن جنود السماوات والأرض عاجزة عنها.

بل قد تكون الحكمة اقتضت أن تنضج أنت في الطريق قبل أن تصل إلى نهايته.

وهذه من أصعب مراتب الإيمان:

أن تؤمن بقدرة الله عندما ترى أثرها.

ثم ترتقي أكثر، فتؤمن بحكمته عندما لا ترى بعد أثر القدرة الذي تنتظره.

الرسالة الواقعية

حين تضيق بك مسألة وتُسأل:

لماذا لا يتغير شيء؟

أضف إلى السؤال سؤالاً آخر:

ما الحكمة التي قد تشكل في زمن الانتظار؟

قد يتغير أشخاص.

قد تنكشف حقائق.
 قد تسقط أوهام.
 قد تبدل نيات.
 قد تنضج رؤيتك.
 قد تتعلم شيئاً لو جاءك المطلوب مبكراً لما تعلمته.
 لا يعني هذا أن ندعي معرفة الحكمة في كل شيء..
 بل أن نحفظ في القلب يقيناً:
 عدم رؤيتي للحكمة لا يعني عدم وجودها.
 ثم ينتقل السياق فجأة إلى النبي ﷺ:
 ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾.
 وهنا تضع السورة النصر في سياقه الصحيح.
 فالفتح ليس غاية مستقلة.
 والنصر ليس مجرد الغلبة.
 إنما هناك رسالة.
 وهناك رسول.
 وهناك شهادة.
 وبشارة.
 وإنذار.
 فالإسلام لا ينتصر ليقول للناس: انتصرونا.
 بل لينفتح الطريق أمام الهداية.
 إضاءة لغوية | ﴿شَاهِداً﴾
 الشاهد هو من حضر وعلم وأدى ما عنده من شهادة.
 ولفظ شاهداً أعمق من مجرد «مبليغ».
 فالرسول ﷺ شاهد على أمته بما بلغها، وشاهد على استجابتهم للرسالة، وشاهد بالحق الذي جاء به.
 والشهادة تقتضي حضوراً ومسؤولية.
 ولهذا لم يكن النبي ﷺ مجرد ناقل كلمات من السماء.
 كان الرسالة تمشي في حياة إنسان.
 يرى الناس القرآن في خلقه.
 ويرون الصبر في موقفه.

ويرون الرحمة في معاملته.

ويرون الثبات عند الشدائد.

وكان الشهادة ليست فقط أن تقول الحق.

بل أن تجعل حياتك دليلاً على صدق ما تقول.

اللطيفة التدبيرية | أجمل الدعوة ما صار فيها الإنسان شاهداً على ما يؤمن به

قد يتكلم الإنسان طويلاً عن الصبر، ثم ينهار عند أول امتحان.

ويتحدث عن التوكل، ثم يعبد الأسباب حين تضيق.

ويتحدث عن الرحمة، ثم يصبح قاسياً عند اختلاف.

ويتحدث عن القرآن، ثم لا يظهر القرآن في أخلاقه.

وهنا نفهم معنى «الشهادة» على مستوى أوسع.

أقوى ما يثبت الفكرة ليس الكلام عنها فقط.

بل أن يراها الناس حية.

كان النبي ﷺ شاهداً.

لا بلسانه فقط.

بل بسيرته.

فالناس كانوا يرون أثر الوحي في القرار، والغضب، والعفو، والحرب، والسلم، والفقر، والنصر.

ولهذا فالداعية الحقيقي ليس من يضيف معلومات إلى عقول الناس فقط.

بل من يجعلهم يقولون حين يرونه:

هكذا يفعل الإيمان بصاحبه.

الرسالة الواقعية

اسأل نفسك:

لو لم يسمع الناس مني شيئاً عن ديني، ورأوا فقط معاملتي، وصبري، وعدلي، وصدقي، وطريقة اختلافي معهم؛ فهل سيعرفون أن وراء هذه الأخلاق قرأنا؟

هذه واحدة من أقسى المراجعات.

لأن الكلام سهل.

أما الشهادة فهي أن تصبح أنت جزءاً من البرهان.

في البيت.

وفي العمل.

وفي الخصومة.

وفي البيع.
وفي الغضب.
وفي الوفاء.
هناك تكون شاهداً أو تكون نقيض ما تقول.
ثم قال:
﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

وهنا توازن بديع.
الرسالة ليست تخويفاً فقط.
وليست تطميناً فقط.
إنها تبشير وإنذار.
رجاء وخوف.
فتح للطريق وتحذير من الهاوية.
إضاءة لغوية | ﴿مُبَشِّرًا﴾
البشارة في أصلها خبر يظهر أثره على البشرة؛ أي على ظاهر الوجه.
فهي ليست معلومة باردة.
إنها خبر يغير ملامح الإنسان.
ومن هنا كانت البشارة القرآنية ليست مجرد وعد بعيد.
إنها معنى قادر على أن يغير كيف يعيش الإنسان يومه.
حين تعرف أن الله يغفر.
وأن الجنة حق.
وأن العمل لا يضيع.
وأن الصبر له نهاية.
وأن المظلوم لن يُنسى.
وأن كل ألم في سبيل الله محفوظ.
فهذه المعاني ينبغي أن تترك أثراً على وجه الروح قبل وجه الجسد.

اللطفية التدرجية | الدين الذي لا يفتح نافذة للرجاء لم يبلغ القلب كما ينبغي

بعض الخطاب الديني يصنع إنساناً يهرب من الله.
والقرآن يريد إنساناً يهرب إلى الله.
هناك فرق هائل.
الإنذار يمنعك من الغرور.

والبشارة تمنعك من اليأس.

الإنذار يقول:

لا تتهاون.

والبشارة تقول:

لا تقنط.

الإنذار يحرسك من أن تأمن مكر نفسك.

والبشارة تحرسك من أن تستسلم حين تسقط.

ولهذا جاءت الرسالة بين جناحين.

ولو طار الإنسان بأحدهما وحده اختلّ.

الرسالة الواقعية

إذا أخطأت، فلا تجعل شعورك بالذنب يحولك إلى إنسان يأس.

وفي الوقت نفسه لا تجعل سعة رحمة الله ذريعة لتكرار الذنب بلا مقاومة.

اعمل بقلبين في قلب واحد:

قلب يخاف أن يبتعد.

وقلب يرجو أن يقبل.

وهذا هو التوازن الذي يصنع السير.

ثم يقول تعالى:

﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

وهنا تتحول الرسالة إلى وظيفة في حياة المؤمن.

الإيمان ليس موقفًا داخليًا فقط.

له آثار.

تعظيم.

ونصرة.

وتوقير.

وذكر.

إضاءة لغوية | ﴿تُعَزِّرُوهُ﴾

التعزيز في أصل العربية يدور حول النصر مع التعظيم والمنع والحماية.

فتعزيز الرسول ﷺ ليس مجرد المحبة الشعورية.

بل نصر رسالته، وحفظ مكانته، والدفاع عن سنته، وتعظيم ما جاء به.

أما:

فالوقار من الثقل والرزانة.
أي أن يكون للنبي ﷺ في قلب المؤمن منزلة ليست كمنزلة سائر الناس.
لا يتعامل مع قوله كأنه رأي بين الآراء.
ولا مع سنته كأنها مادة هامشية.
ولا مع سيرته كأنها قصة تاريخية.
بل يعرف أن هذا الرجل ﷺ هو الطريق الذي وصل عبره الوحي إلى حياته.
وهنا يصبح التوقير فعلاً معرفياً وقلبيّاً وأخلاقياً.

اللطيفة التدريبية | المحبة التي لا تتحول إلى اتباع تبقى ناقصة

قد يقول الإنسان:
أنا أحب رسول الله ﷺ.
لكن السؤال الذي تطرحه الآية:
كيف تظهر هذه المحبة؟
هل تظهر حين يخالف هواك أمره؟
هل تظهر حين تصطدم سنته بعادة اجتماعية؟
هل تظهر حين يكون الالتزام أثقل من الكلام؟
فالتعظيم الصادق ليس في لحظة التأثر فقط.
بل في أن يكون للنبي ﷺ مرجعية فوق رغبتك.
وهنا يتبين صدق المحبة.
فكل إنسان يستطيع أن يحب ما يوافقه.
لكن المحبة تختبر حين يأمرك المحبوب بشيء لا تميل إليه النفس.

الرسالة الواقعية

اجعل علاقتك بالنبي ﷺ علاقة معرفة قبل أن تكون مجرد عاطفة.
اقرأ سيرته.
تعرف إلى طريقته في الغضب والعفو.
في الحرب والسلام.
في التعامل مع أهله وأصحابه وخصومه.
في الشدة والرخاء.
ثم اسأل:
أين أنا من هذا الميزان؟

فكلها ازدادت معرفة به، صار الاتباع أكثر وعياً، والمحبة أقل تجريداً.
ثم تختم الآية:
﴿وَتَسِيحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾.

إضاءة لغوية | ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾
البُكْرَةُ أول النهار.
والأَصِيل آخره.

وذكر الطرفين يشير إلى امتداد الذكر في اليوم.
كأن القرآن يضع يوم المؤمن بين قوسين من التسبيح.
يفتحه بالله.
ويختمه بالله.

وبين البداية والنهاية تجري تفاصيل الحياة.
وهذا معنى عجب.

فالإنسان يمكن أن يدخل في أعماله ومشكلاته ومشاغله حتى ينسى أصل الحكاية.
ثم يأتي التسبيح ليعيده إلى مركزه.
من أنا؟
عبد.

ومن الله؟
الرب المنزه عن كل نقص.
ومن يدير هذا اليوم؟
هو.

اللطيفة التدبيرية | حين يبدأ يومك بالله لا تكبر الأشياء أكثر من حجمها

التسبيح ليس لفظاً فقط.
إنه إعادة ترتيب للكون في القلب.
حين تقول:
سبحان الله
فأنت تنزه الله عن الظلم.
وعن العيب.
وعن النقص.
وعن العجز.
وعن أن يضيع عملك.

وعن أن يفلت شيء من علمه.
ولهذا فإن التسييح دواء عميق للاضطراب.
كثير من القلق ينشأ حين نتصرف داخلياً وكأن الكون خرج من يد الله.
ثم يأتي:
سبحان الله
ليعيد كل شيء إلى موضعه.

الرسالة الواقعية الجامعة للآيات

هذه الآيات الثلاث تعيد ترتيب علاقتك بالقوة، وبالرسالة، وبالنبي ﷺ، وباليوم كله.
إذا رأيت قوة هائلة في الأرض، فتذكر:
﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
إذا حملت فكرة أو دعوة أو كلمة حق، فلا يكف أن تتحدث عنها؛ كن شاهداً عليها
بأخلاقك.
إذا دعوت الناس، فلا تجعل خطابك سوطاً دائماً؛ ففي الرسالة:
﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.
إذا أحببت النبي ﷺ، فحöll الحب إلى توقير واتباع ونصرة.
وإذا بدأت يومك، فلا تدعه يبتلع قلبك.
ضع في أوله وآخره:
﴿وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.
وهكذا تمضي بنا سورة الفتح خطوة أخرى:
من فتح في التاريخ،
إلى سكينه في القلب،
إلى معرفة مصدر القوة،
ثم إلى سؤال أعمق:
بعد أن عرفت أن لله جنود السماوات والأرض، لأي رسالة ستجعل حياتك جديداً؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلْفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّتِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۖ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنَ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزِينَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾

بعد أن عرّفت السورة المؤمن بمصدر القوة، وبمكانة الرسول ﷺ، تنتقل الآن إلى مشهد تجسد فيه حقيقة الإيمان في صورة عملية شديدة الوضوح:

البيعة.

لم يعد الأمر إحساساً في القلب فقط.

ولا إعجاباً بالرسالة.

ولا حباً مجرداً للنبي ﷺ.

بل عهد.

والعهد يكشف حقيقة الإنسان؛ لأن المشاعر قد ترتفع ثم تهبط، أما العهد فيسأل صاحبه:

هل ستبقى حين يصبح الوفاء مكلفاً؟

وهنا تأتي واحدة من أهيب آيات السورة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾.

إضاءة لغوية | «يُبَايِعُونَكَ»

البيعة مأخوذة من البيع؛ لأن المتبايعين كان كل واحد منهما يمد يده للآخر عند إتمام العقد.

فانتقل اللفظ من عقد الأموال إلى عقد الولاء والالتزام والطاعة.

وهذا الأصل اللغوي يفتح معنى عجباً:

البيعة ليست كلمة مجاملة.

إنها عقد.

والعقد له تبعات.

وله ثمن.

وله وفاء.

وله نكث.

فحين بايع الصحابة النبي ﷺ، لم يكونوا يعبرون عن مشاعر لحظية.

بل يدخلون في التزام قد يكلفهم حياتهم.

ولهذا رفع القرآن شأن هذه البيعة حتى قال:
﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾.

أي إن بيعتهم للرسول ﷺ، بوصفه رسول الله، هي التزام بعهد الله وطاعته.
وهذا يضع الحدث كله في مستوى أعلى من العلاقة بين قائد وأتباع.
إنها علاقة عبودية.

اللطيفة التدريبية | بعض المواقف تكشف أن علاقتك بالله ليست فكرة بل عقد

هناك فرق بين أن تحب الإيمان حين يكون مريحاً، وأن تلتزم به حين يطلب منك شيئاً.
وهنا تختبر الحقيقة.

الإنسان قد يحب الصدق حتى يخسره صفقة.
ويحب العدل حتى يصبح خصمه ممن يحب.
ويحب الأمانة حتى تُعرض عليه منفعة لا يصل إليها إلا بالخيانة.
ويحب الطاعة حتى تصطدم برغبة قوية في نفسه.
عند ذلك تنتقل العلاقة بالله من مستوى الشعور إلى مستوى البيعة.
أي:

هل ما زلت لله حين يكون ثمن الانتماء إليه باهظاً؟
وهنا تفهم لماذا كانت البيعة لحظة فارقة.
لأن الله لا يريد قلباً يقول فقط:
أنا مؤمن.

بل يريد قلباً إذا استدعي للوفاء قال بفعله:
أنا على العهد.

الرسالة الواقعية

كل واحد منا لديه «بيعات» أخلاقية لا يراها الناس.
وعد قطعه لله أن تترك ذنباً.
أمانة التزمت بها.
حق للناس عندك.
مبدأ أعلنت أنك لن تتبعه.
مسؤولية دخلت فيها بإرادتك.
وهنا يأتي السؤال:
هل نتعامل مع هذه الالتزامات باعتبارها كلمات قابلة للمساومة؟

أم باعتبارها عهداً يُسأل عنها القلب؟
فالإنسان لا يُعرف بما يقوله عند الحماس فقط.
بل بما يفني به بعد أن يذهب الحماس.
ثم يقول الله:
﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

وهذه الآية من آيات الصفات التي تُثبِت كما جاءت، على الوجه اللائق بالله سبحانه، من غير تشبيه ولا تكييف ولا تمثيل؛ ف﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ولا تُحمل صفات الخالق على صفات المخلوقين.

وفي سياق الآية دلالة ظاهرة على عظمة شأن البيعة، وأنها بعهد الله ورعايته، وأن الله مطلع عليها ومؤيد لأهل الوفاء بها.

والتعبير يملأ المشهد كله مهابة:
أيدٍ تمتد إلى رسول الله ﷺ في الأرض.
وعهدٌ يبلغ في حقيقته منزلة أن يقال فيه:
﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾.

فلا يعود الموقف حركة عابرة في التاريخ.
بل يصبح مشهداً تشهد السماء.

اللطيفة التدرية | حين يكون الله حاضراً في وعيك يتغير وزن أفعالك

أكثر ما يفسد الوفاء أن ينسى الإنسان من يشهد العهد.
قد يستهين بوعده لأن الطرف الآخر ضعيف.
أو ينقض التزاماً لأن الناس لا يعلمون.
أو يتراجع لأن الكلفة ارتفعت.
لكن إذا استقر في القلب أن الله شاهد على العهد، تغير كل شيء..
لم يعد السؤال:

هل سيراني الناس؟

بل:

هل أنا وفي مع الله؟

وهذا من أعظم ما يصنعه الإيمان في الأخلاق.

يحرر الأخلاق من مراقبة البشر.

فتصبح الأمانة أمانةً حتى في الظلام.

ويصبح الوفاء وفاءً حتى مع من لا يستطيع أن ينتزع حقه منك.

ثم يقول: ﴿فَن نَّكَثُ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.

إضاءة لغوية | ﴿نَكَثَ﴾

النكث هو النقض بعد الإبرام.
ويقال في الأصل: نكث الحبل، إذا حلّ فتله بعد أن كان محكماً.
وهذه الصورة اللغوية بديعة.

العهد كالحبل.

تنسجه الكلمة.

وتشدّه النية.

ويقوّيه الوفاء.

ثم يأتي النكث فيفك ما أبرمه الإنسان بنفسه.
لكن القرآن يقول شيئاً أعمق:
﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.

هو يتصور أنه نكث عهداً مع غيره.
لكن أول من يصيبه أثر الخيانة هو نفسه.
فالوفاء يبني النفس.
والنكث يهدمها.

كل مرة تخون فيها عهداً صحيحاً تزرع داخلك اعتياداً على التراجع.
وكل مرة تفني مع صعوبة الوفاء تزرع في قلبك صلابة أخلاقية جديدة.

اللطفية التدبيرية | المعصية لا تصيب الأمر الخارجي فقط، بل تعيد تشكيل صاحبها

هذا معنى عميق جداً في القرآن.
حين تكذب لا يقع الضرر في المعلومة فقط.
بل يحدث شيء في نفسك.
وحين تخون لا يتضرر الطرف الآخر وحده.
بل يُصاب البناء الأخلاقي داخلك.
وحين تفني لا ينتفع صاحب الحق فقط.
بل أنت تصنع في نفسك إنساناً يستطيع الوفاء مرة أخرى.
وهكذا:
الأفعال ليست أحداثاً تمر خارجنا.

إنها أزاميل تحت شخصياتنا.
ولهذا قال:
﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.

الرسالة الواقعية

احذر من التهاون في الوعود الصغيرة.
لأن النفس نتعلم.
إذا عودتها أن تقول ثم لا تفعل، سهل عليها ذلك في الأكبر.
وإذا عودتها الوفاء ولو في التفاصيل، نشأت فيها هيبة الكلمة.
لا تقل:
هذا وعد بسيط.
فربما كانت القضية ليست حجم الوعد، بل نوع الإنسان الذي تصنعه وأنت تفني أو تنكث.
ثم يأتي الوجه المضيء:
﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

إضاءة لغوية | ﴿أَوْفَىٰ﴾
الوفاء هو الإتمام وعدم الانتقاص.
أي أن تؤدي الشيء كاملاً كما التزمته.
والجميل هنا أن الجزاء جاء مقابل الوفاء:
وفاء من العبد.

وعطاء عظيم من الرب.
لكن انظر إلى الفارق:
العبد يفي بعهد محدود.
والله يعطيه:
﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

إنها معادلة فضل لا معادلة مقابلة متساوية.
عمل محدود.
ووثاب يتجاوز حدود العمل.
وهذا من رحمة الله.

اللطفية التدبيرة | الله لا ينسى اللحظة التي قاومت فيها نفسك لتبقى وفياً

قد يعرف الناس أنك التزمت.
لكنهم لا يعرفون كم كان الوفاء صعباً.
لا يعرفون الحرب التي وقعت داخلك.
ولا الأشياء التي تنازلت عنها.
ولا الرغبات التي كتبتها.
ولا الفرصة التي فائتلك لأنك رفضت أن تخون.
لكن الله يعلم.
ولهذا يكفئك أحياناً قوله:
﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

لا يحتاج الوفاء دائماً إلى تصفيق.
يكفيه أن يكون محفوظاً عند الله.
ثم ينتقل السياق إلى فئة أخرى تماماً:
﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾.

وهنا تبدأ السورة في تشرح لغة الأعداء.
إضاءة لغوية | ﴿المُخَلَّفُونَ﴾
المُخَلَّفُونَ هم الذين تركوا وراء الركب ولم يخرجوا.
واللفظ نفسه يحمل صورة مكانية ومعنوية.
هناك قوم تقدموا مع رسول الله ﷺ نحو الامتحان.
وقوم بقوا خلفهم.
لكن التخلف الحقيقي لم يكن تخلف الأجساد فقط.
كان تخلف القلوب عن مستوى الإيمان الذي يقتضي الحركة.
وهذا فارق خطير:
قد يكون الإنسان حاضراً بين المؤمنين جسداً، لكنه متخلف بقلبه.
وقد يكون بعيداً عن بعض ساحات الناس، لكنه صادق عند الله بحسب قدرته ونيته.
العبرة ليست بالموقع وحده.
بل بما حمل القلب إلى ذلك الموقع.

اللطيفة التدريية | العذر قد يكون صحيح الكلمات كاذب الجذور

قالوا:
﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾.

والمال والأهل بالفعل من أعظم المشاغل الإنسانية.
وقد يكون الانشغال بهما عذراً حقيقياً في مواقف أخرى.
لكن القرآن كشف ما وراء العبارة هنا:
﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

وهنا شيء مخيف.
ليست المشكلة دائماً في صياغة العذر.
قد يكون العذر مقنعاً جداً.
لكن الله ينظر إلى المنطقة التي لا يصل إليها البشر:
القلب.

قد يقول الإنسان:
لم أستطع.
ويكون المعنى الحقيقي:
لم أرد أن أدفع الثمن.
قد يقول:

الظروف لم تسمح.
ويكون في أعماقه:
كنت خائفاً على مصلحتي.
قد يقول:

لدي مسؤوليات.
وتكون الحقيقة:

الدنيا عندي مقدمة دائماً حين يتعارض الحق معها.
وهذا يجعل المؤمن محتاجاً إلى صدق قاس مع نفسه.

الرسالة الواقعية

حين تعتذر عن طاعة، أو مسؤولية، أو واجب أخلاقي، لا تسأل فقط:
هل عذري منطقي؟
بل اسأل:
هل هو حقيقي؟

فالإنسان يستطيع أن يخدع الآخرين بسهولة أكبر مما يتصور.
لكن الأخطر أن يتقن خداع نفسه.
كثير من الأعذار تبدأ كستار.

ثم يكرها الإنسان حتى يصدقها.
وهنا يبدأ فساد البصيرة.

ثم يقول تعالى:
﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾.

وهذه ضربة مباشرة لجذر التعلق بالدنيا.
هم تخلفوا خوفاً على الأموال والأهل.
فجاء السؤال:

هل بقاءكم معهم يملك لهم أو لكم شيئاً من دون الله؟
إضاعة لغوية | ﴿يَمْلِكُ﴾
الملك هنا هو القدرة على التصرف والمنع والدفع.
أي:

من يستطيع أن يحول بينكم وبين ما يقدره الله؟
والسؤال يهدم الوهم من جذره.
قد يترك الإنسان طاعةً ليحفظ مصلحة.
ثم تضيع المصلحة رغم ذلك.
وقد يقدم على واجب الله وهو يظن أنه سيخسر.
ثم يحفظ الله له ما كان يخاف عليه.
فليس المعنى ترك الأسباب.
بل المعنى:
لا تجعل السبب إلهاً صغيراً في قلبك.

اللطفية التدبيرة | أحياناً نضحى بالله من أجل شيء لا نملك أصلاً حمايته

هذه واحدة من أشد المفارقات في حياة الإنسان.
قد يعصي الله ليحفظ مالا.
لكن من الذي يضمن بقاء المال؟
قد يجامل في باطل ليحفظ منصباً.
لكن من الذي يضمن بقاء المنصب؟
قد يتنازل عن الحق خوفاً على علاقة.
لكن من الذي يملك القلوب؟
قد يترك واجباً خوفاً على المستقبل.
لكن من الذي يملك المستقبل؟

وهنا يصبح السؤال القرآني مرآة:
﴿فَن يَمْلِك لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾؟

إنك أحياناً تخسر ما هو ثابت لتحمي ما هو هش.

الرسالة الواقعية

خذ بالأسباب، واحم أهلك، وأدر مالك بحكمة، وخطط للمستقبل.
لكن ضع خطأ لا تتجاوزه:

لا تعصِ الله لحماية شيء لا يملكه إلا الله.

هذه قاعدة قلبية كبرى.

ثم يكشف الله الحقيقة:

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾.

هنا يسقط العذر.

لم تكن القضية فقط:

«شغلنا أموالنا وأهلونا».

بل كان تحت العبارة شيء آخر:

اعتقدتم أن الرسول والمؤمنين سيذهبون ولن يعودوا.

أي أنهم أسأؤوا تقدير وعد الله، وتوقعوا الهزيمة الكاملة.

وهذا يربطنا بما سبق:

﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوْءِ﴾.

إضاعة لغوية | ﴿يَنْقَلِبُ﴾

الانقلاب هنا بمعنى الرجوع.

أي ظننتم أنهم لن يرجعوا إلى أهلهم أبداً.

والصورة قوية.

الذين خرجوا كانوا يرون أنفسهم في طريق طاعة.

والذين تخلفوا كانوا يرونهم في طريق هلاك.

وهنا تكشف الآية أن الإنسان قد يحسب نفسه واقعياً وهو في الحقيقة يسيء الظن بالله.

وهذه لطيفة شديدة الأهمية.

ليس كل خوف يسمى حكمة.

وليس كل تحفظ يسمى عقلانية.

أحياناً يتستر الجبن بكلمة «واقعية».

ويتستر ضعف اليقين بكلمة «حسابات».
والقرآن يفتش ما وراء الأسماء.

اللطيفة التدبيرة | ليس كل ما نسميه واقعية خالياً من سوء الظن بالله

هناك واقعية صحيحة تعترف بالأسباب.

والإسلام يأمر بها.

لكن هناك واقعية أخرى تقول في باطنها:

لا يمكن أن ينصر الله.

لا يمكن أن يتغير شيء.

لا يمكن أن يفتح باب.

لا يمكن أن يعوض.

وحين تصبح «الواقعية» إنكاراً ضمنيّاً لسعة قدرة الله، لم تعد حكمة.

صارت قيداً على القلب.

المؤمن ليس ساذجاً.

يرى الخطر.

ويعرف الخسائر.

ويحسب الموازين.

لكنه لا يجعل الحساب البشري آخر طبقة في الحقيقة.

فوراء ما يرى:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

ثم يقول:

﴿وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

إضاءة لغوية | ﴿زَيْنٌ﴾

التزيين هو جعل الشيء حسناً في النظر حتى تميل إليه النفس.

وهنا الخطر ليس فقط أنهم ظنوا ظناً سيئاً.

بل أن هذا الظن تجلّ داخلهم.

صار يبدو معقولاً.

ثم مقنعاً.

ثم حكيماً.

وهكذا تعمل كثير من أمراض القلب.

نادراً ما تقول لك النفس:

افعل الشر لأنه شر.

بل تغير اسمه.

تسمي الجبن حكمة.

والبخل احتياطاً.

والحسد نقداً موضوعياً.

والتعلق بالدنيا مسؤولية.

والتكبر حفاظاً على الكرامة.

وحين يتزين الباطل في القلب يصبح علاجه أصعب؛ لأن صاحبه لم يعد يراه باطلاً.

اللطفية التدرية | أخطر الانحرافات ما أصبح جميلاً في عين صاحبه

الذنب الذي تعرف أنه ذنب قد نتوب منه.

أما الذنب الذي صنعت له فلسفة كاملة، فذلك أخطر.

لأنك لن تطلب العلاج من شيء تظنه صحة.

ولهذا يحتاج المؤمن دائماً إلى القرآن.

فالقرآن لا يعطيك أحكاماً فقط.

بل يحطم الزينة الكاذبة التي تضعها النفس حول أهوائها.

يقول لك:

هذا الذي تسميه حذراً قد يكون خوفاً.

وهذا الذي تسميه مصلحة قد يكون دنياً استولت على القلب.

وهذا الذي تسميه اجتهاداً قد يكون هروباً من التكليف.

وهنا تكون الهداية مؤلمة أحياناً؛ لأنها تنزع عن النفس أسماءها الجميلة.

الرسالة الواقعية

إذا وجدت نفسك تبرر موقفاً كثيراً، فتوقف قليلاً.

فكثرة التبرير قد تكون أحياناً علامة أن القلب يعرف شيئاً لا يريد الاعتراف به.

أسأل:

لو لم تكن لي مصلحة هنا، هل كنت سأحكم الحكم نفسه؟

لو كان هذا الفعل من شخص آخر، هل كنت سأراه بالعدر ذاته؟

لو عُرِضَ موقفني على القرآن مجرداً من اسمي ومصلحتي، ماذا سيكون وصفه؟

هذه أسئلة تكسر التزيين.

ثم يقول تعالى:

﴿وَوَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾.

إضاعة لغوية | ﴿بُورًا﴾

«البور» من البوار، وهو الهلاك والفساد والكساد.

ومنها الأرض البور التي لا تنبت.

والتعبير هنا بالغ.

لم يقل فقط:

أخطأتم.

بل وصف حالاً أعمق:

﴿قَوْمًا بُورًا﴾.

كأن القلوب التي استولى عليها سوء الظن، والتخلف، والتزبن الداخلي للباطل، أصبحت كأرض فقدت قابليتها للإنبات.

فالقرآن نزل.

والنبي حاضر.

والآيات ظاهرة.

لكن الأرض الداخلية لم تعد تثمر.

وهذا أخطر من نقص المعلومات.

إنه فساد التلقي.

اللطيفة التدرية | القلب قد يصبح أرضاً لا تنبت رغم كثرة المطر

ليس كل من يسمع القرآن ينتفع بالقرآن.

كما أن المطر قد ينزل على أرض خصبة فتنبت.

وينزل على صخر فيجري عنه.

فالقضية ليست في المطر وحده.

بل في الأرض.

وهذا يدفع المؤمن إلى سؤال بالغ الأهمية:

كيف هي أرض قلبي؟

حين أسمع الحق، هل ألين؟

حين أكشف للنفس، هل أراجع؟

حين يظهر خطئي، هل أتراجع؟

أم أنني صرت أجيد اختراع الأعذار حتى لا يدخل شيء إلى الداخل؟

القلوب لا تبور فجأة.

قد يبدأ البوار بتبرير صغير.
ثم عناد صغير.
ثم سوء ظن.
ثم اعتياد على الهروب.
حتى يصبح الحق يمر بالقلب ولا يترك أثراً.

الرسالة الواقعية الجامعة للآيات

هذه الآيات ترسم طريقين متقابلين.
في الأول:
بيعة → عهد → وفاء → أجر عظيم.
وفي الثاني:
تحلف → عذر → تزيين → سوء ظن → بوار.
وبين الطريقين يقف القلب.
فالسؤال ليس فقط:
هل قلت إنني مؤمن؟
بل:
ماذا أفعل عندما يصبح الإيمان عهداً؟
هل أفي؟
هل أنقض؟
هل أتحرك؟
هل أختبئ وراء الأعذار؟
هل أرى مصلحتي أكبر من الأمر؟
هل أسمى خوفي حكمة حتى أرتاح؟
وهنا تكشف سورة الفتح حقيقة شديدة العمق:
ليست كل الهزائم تبدأ في ميدان القتال.
بعضها يبدأ في القلب قبل أن يخطو الإنسان خطوة.
حين يسيء الظن بالله.
وحين يزين لنفسه التراجع.
وحين يصنع لعجزه اسماً محترماً.
وفي المقابل، ليست كل الانتصارات تبدأ في الخارج.
بعضها يبدأ من لحظة صامته يقول فيها الإنسان لنفسه:

لقد عاهدت الله.

وسأفي.

ولو كان الطريق مكلفاً.

وهكذا تنتقل بنا السورة من السكينة في القلب إلى الوفاء بالعهد، ثم تفتح لنا غرفة خفية في النفس لا يراها الناس:

غرفة الأعدار.

وهناك تحدد حقيقة الطريق:

هل يكون لسانك ترجمان قلبك؟

أم يقول لسانك ما ليس فيه؟

﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ۖ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ يَعْزُزُ مَنْ يَشَاءُ وَيُعْذِبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ
إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِّتَأْخُذُوا ذُرُوعًا نَّتَّبِعُكُمْ يَرْيدُونَ أَنِ يَدُلُّوَا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَّنْ نَّبْعُوثَا
كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾

بعد أن كشفت السورة ما وراء أعذار المتخلفين، لا تترك القضية معلقة في منطقة الأعدار والتبريرات، بل تعيدها إلى أصلها الأكبر:

الإيمان بالله ورسوله.

فالقضية في النهاية لم تكن مجرد قرار خاطئ في رحلة الحديبية.

كان وراء القرار تصور عن الله.

وظن بالله.

وموقف من الرسول.

وقدر من الاستعداد للتضحية.

ولهذا تأتي الآية حاسمة:

﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ۖ﴾.

وكان القرآن يعيد الإنسان من التفاصيل إلى الجذر:

بعض الأخطاء ليست منفصلة عن القلب.

إنها نافذة نرى من خلالها حقيقة ما استقر فيه.

إضاءة لغوية | ﴿أَعْتَدْنَا﴾

«أعدت» الشيء: أعدّه وهبّاه وأحضره ليكون جاهراً عند الحاجة.

فالتعبير:

﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا﴾

ليس مجرد وعيد بعيد غامض.

بل فيه معنى الإعداد والتهيئة.

ثم جاء:

﴿سَعِيرًا﴾

والسعير من السَّعَر، وهو اشتعال النار والتهابها.

فالصورة شديدة.

لكنها تأتي هنا بعد سلسلة من الإنذارات القلبية:

سوء ظن.

وتزيين.

وأعدار كاذبة.

وتخلف.

ثم يقال للإنسان:

لا تجعل هذه الأشياء صغيرة في عينيك حتى تفسد أصل علاقتك بالله.

فالقرآن حين يحذر من النار، لا يريد تعذيب القلب بالخوف المجرد، بل يريد إيقاظه قبل أن يصل إلى المصير الذي يخشاه.

اللطيفة التدبيرية | أخطر ما في الذنب أنه قد يتحول من فعل إلى موقف

ليس كل من عصي صار كافراً، ولا كل تقصير يهدم أصل الإيمان؛ لكن الآيات تعلمنا أن الإنسان ينبغي ألا يستهن بالطريق الذي تسلكه المعاصي والأهواء في داخله.

فالأمر قد يبدأ بتراجع صغير.

ثم يأتي التبرير.

ثم يتكرر التبرير.

ثم تتشكل رؤية كاملة ترجح النفس من مواجهة الحقيقة.

ثم يصبح الإنسان يدافع عن انحرافه بدل أن يتوب منه.

وهنا يتحول الخطأ من شيء يفعله الإنسان إلى شيء يعيد تشكيل الإنسان.

وهذه من أخطر مراحل الانحراف.

فالمؤمن قد يذنب ويبكي.

وقد يضعف ثم يرجع.

وقد يتخلف ثم يندم.

أما الكارثة فأن يصبح للخطأ في قلبه محامٍ دائم.

لا تخف من أن ترى عيبك.
 خَفَ من أن تصل إلى مرحلة لا تعود ترى فيها العيب عيباً.
 إذا أخطأت، فليكن بينك وبين نفسك باب مفتوح للاعتراف.
 قل:
 أخطأت.
 ضعفت.
 قصرت.
 غلبتني نفسي.
 فهذه الكلمات - على ألسنتها - أكثر أماناً من صناعة فلسفة كاملة لتبرير الخطأ.
 الإنسان الذي يعترف بمرضه قابل للعلاج.
 أما الذي أقنع نفسه أن المرض صحة، فقد أغلق الباب من الداخل.
 ثم يفتح القرآن مباشرة باباً آخر:
 ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.
 وعجيب هذا الانتقال.
 بعد:
 ﴿سَعِيرًا﴾
 تأتي:
 ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.
 لأن القرآن لا يريد من الخائف أن يهرب من الله.
 بل أن يهرب إلى الله.
 إضاءة لغوية | ﴿مُلْكُ﴾
 الملك هو تمام السلطان والتصرف.
 والآية لا تقول:
 لله بعض الأمر.
 بل:
 ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

كل ما تراه داخل ملكه.
 وكل ما لا تراه داخل ملكه.
 والعبد نفسه داخل ملكه.
 وأسباب النجاة والعقوبة والمغفرة كلها إليه سبحانه.
 ولهذا أعقب الملك بقوله:
 ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾.
 ومشيتته سبحانه ليست عبثاً ولا ظمهاً، تعالى الله عن ذلك، بل هي مشيئة الرب العليم
 الحكيم العدل الرحيم.
 ثم خُتمت الآية بما يفتح للقلوب باب الرجوع:
 ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

اللطفية التدرية | بعد أن يكشف القرآن قبح القلب لا يغلق باب العودة

هذه من أعظم رحمة القرآن بالإنسان.
 يكشفك.
 لكنه لا يحطمك.
 يسمي الخطأ باسمه.
 لكنه لا يقول لك: انتهيت.
 يحذرك من النار.
 ثم يقول لك مباشرة:
 ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.
 وكان المعنى:
 لقد عرفنا ما في قلبك.
 وعرفنا عذرك الكاذب.
 وعرفنا سوء ظنك.
 وعرفنا تخلفك.
 لكن باب المغفرة لم يغلق.
 المشكلة ليست أنك سقطت.
 المشكلة أن تصر على البقاء في مكان السقوط.
 وهنا يظهر فرق هائل بين منطق القرآن ومنطق اليأس.
 اليأس يقول:

بما أنك أخطأت كثيراً فلا معنى للعودة.
والقرآن يقول:
لأنك أخطأت، فأنت أحوج إلى العودة.

الرسالة الواقعية

مهما تراكم عليك الماضي، لا تحول ذنوبك إلى حجة تمنعك من الله.
بعض الناس يقول:
لقد أخطأت كثيراً.
ثم يجعل كثرة الخطأ سبباً لخطأ جديد: القنوط.
والأصح أن تقول:
لقد أخطأت كثيراً، ولذلك لا ملجأ لي إلا إلى من وصف نفسه بأنه:
﴿غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

لا تؤجل التوبة حتى تصبح جديراً بها.
فأنت لا تتوب لأنك صرت صالحاً.
أنت تتوب لكي يصلحك الله.
ثم تعود السورة إلى المتخلفين:
﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِّتَأْخُذُوا ذُرُونا تَبِّعُكُمْ﴾.
وهنا تقع واحدة من أكثر المفارقات الإنسانية كشفاً.
عندما كان الطريق يحمل الخوف:
تخلفوا.
وعندما أصبح الطريق يحمل الغنيمة:
قالوا:
﴿ذُرُونا تَبِّعُكُمْ﴾.

لقد تبدلت الرغبة حين تبدلت الكلفة.
وهنا يكشف القرآن الفرق بين من يتبع الحق، ومن يتبع النتيجة.
إضاعة لغوية | ﴿مَغَائِمٍ﴾
المغائيم جمع مغيم، من مادة غ ن م، وهي ما يُنال من مكسب وفائدة.
والسياق يحمل مفارقة بليغة:
حين كان أمامهم احتمال التضحية، ظهرت الأموال والأهل عذراً:
﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾.

وحين ظهرت المغام، اختفى الانشغال فجأة.
لم تعد الأموال والأهل تمنعهم من الخروج.
وهنا يكشف الحدث بنفسه كذب العذر السابق.
فالإنسان قد لا يحتاج دائماً إلى مناظرة طويلة لكشف حقيقة دوافعه.
أحياناً يكفي أن نغير المصلحة.
فتظهر الحقيقة.

اللطيفة التدرية | المصلحة تكشف أحياناً ما أخفاه الكلام

تأمل الإنسان في موطنين:
الأول يحتاج إلى تضحية.
والثاني يحمل منفعة.
إذا اختفت أعداره كلها في الوطن الثاني، فقد عرفت أين كانت المشكلة.
ليس في الوقت.
ولا في الظروف.
ولا في العجز.
بل في الثمن الذي لم يكن يريد دفعه.
وهذه مرآة شديدة القسوة على النفس.
قد يقول الإنسان:
ليس عندي وقت للقرآن.
لكن الساعات تظهر حين يأتي شيء يحبه.
ويقول:
لا أستطيع أن أشارك في خير.
ثم يستطيع أن يسافر طويلاً لأمر من الدنيا.
ويقول:
ظروفي لا تسمح.
ثم تسمح الظروف نفسها عندما تكون المنفعة شخصية.
ليس المقصود اتهام كل عذر.
فالأعدار الحقيقية موجودة.
لكن الآية تعلمنا أن تغير الرغبة بحسب المكسب قد يفضح حقيقة القلب.

الرسالة الواقعية

راقب الأماكن التي تظهر فيها طاقتك فجأة.

فهني تخبرك بما تحب.
 إذا كنت دائماً متعباً للطاعة، نشيطاً للهوى، فالمشكلة ليست كلها في التعب.
 وإذا كنت دائماً مشغولاً بالواجب، متفرغاً للمتعة، فالمشكلة ليست كلها في الوقت.
 وجدول الإنسان كثيراً ما يكون سيرة ذاتية صامتة لأوليائه.
 ليس المهم فقط ما تقول إنه مهم.
 انظر أين يذهب وقتك عندما تكون حراً في الاختيار.
 هناك تظهر القيم الحقيقية.
 ثم قالوا:
 ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾.

إضاءة لغوية | ﴿نَتَّبِعْكُمْ﴾
 الاتباع في العربية هو السير خلف الشيء على طريقه.
 لكن لفظ الاتباع هنا يكشف مفارقة:
 كانوا يستطيعون أن يتبعوا حين كان الاتباع امتحاناً.
 فلم يتبعوا.
 والآن يريدون اتباعاً جاء بعد أن ظهرت ثماره.
 وهذا يضع أمامنا نوعين من الاتباع:
 اتباع يبدأ من الإيمان، ويتحمل الطريق بما فيه.
 واتباع يبدأ عند الغنيمة.
 الأول يقول:
 أنا مع الحق ولو لم أعرف ماذا سأربح.
 والثاني يسأل أولاً:
 ماذا سأحصل؟
 ثم يقرر هل يتبع أم لا.

اللطيفة التدرية | المحبة الحقيقية تظهر قبل توزيع الجوائز

كل إنسان يحب أن يكون قريباً من النجاح بعد ظهوره.
 قليلون هم الذين يقفون مع الفكرة في أيام ضعفها.
 بعد أن ينجح المشروع، يكثر أصحابه.
 بعد أن ينتصر الحق، يكثر المنتصون إليه.
 بعد أن يثمر الطريق، يكثر السائرون.
 لكن الله يعرف أولئك الذين مشوا حين لم تكن هناك ثمار ظاهرة.

الذين دفعوا الثمن قبل أن يروا المكسب.
الذين ثبتوا حين كان الطريق كله غباراً.
وهؤلاء لهم مقام لا يُشترى بمجرد الالتحاق ساعة النصر.

الرسالة الواقعية

لا تجعل علاقتك بالمبادئ مرتبطة بنجاحها الظاهر.
إن كنت مع الحق لأنه قوي، فقد تتركه إذا ضعف.
وإن كنت مع الإنسان لأنه مشهور، فقد تتركه إذا خفت بريقه.
وإن كنت مع المشروع لأنه مريح، فقد تنفض عنه إذا تعثر.
لكن إذا كانت بوصلتك هي الحق نفسه، بقيت حين تتغير الظروف.
وهنا يتشكل الإنسان صاحب المبدأ.

ثم يقول تعالى:
﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾.

إضاعة لغوية | ﴿يُبَدِّلُوا﴾

التبديل هو جعل شيء مكان شيء.
أي يريدون تغيير ما قضاه الله وأخبر به في أمر هؤلاء المؤمنين وما خصوا به.
وفي السياق الذي ذكره المفسرون، لما أراد النبي ﷺ التوجه إلى خيبر أراد المتخلفون أن يخرجوا طلباً للمغامم، وقد سبق وعد الله للمؤمنين الذين شهدوا الحديبية بما سيأتيهم.
وهنا تظهر قاعدة كبرى:

حين تفوت الإنسان كلفة الطريق، لا يحق له أن يطالب بكل ثمرة من حمل تلك الكلفة.

للطيفة التدبيرية | لا يمكن أن تعيد كتابة الطريق بعدما ظهرت نهايته

الإنسان يحب أحياناً أن يحذف من القصة أصعب فصولها.

يريد الثمرة بلا موسم.

والنتيجة بلا تعب.

والمكانة بلا ثبات.

والحصاد بلا بذرة.

لكن الله جعل للسنن ترتيباً.

ليس كل متأخر يستطيع أن يقول حين تظهر النتائج:

عاملوني كمن حملوا العبء من البداية.

فالوفاء له ذاكرة.

والتضحية لها وزن.
والله لا ينسى من وقف في الساعة الثقيلة.

الرسالة الواقعية

تعلم احترام أسبقية من دفعوا الثمن.

في عمل جماعي.

في مشروع.

في أسرة.

في قضية.

في مؤسسة.

لا يظهر بعض الناس إلا عند الحصاد، ثم يريدون نصيب الذين كانوا هناك وقت الزراعة.

والعدل يقتضي أن تميز بين من تحمل الخطر ومن حضر بعد زواله.

ليس تحقيراً للمتأخر.

ولكن اعترافاً بحق السابق.

ثم يأتي الجواب:

﴿قُلْ لَنْ تَنْبِعُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

لقد حُسم الأمر.

لكن بدل أن يراجعوا أنفسهم، ماذا قالوا؟

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَا﴾.

وهنا يحدث تحول نفسي بالغ الدقة.

كان ينبغي أن يقولوا:

أخطأنا حين تخلفنا.

لكن النفس التي لا تريد الاعتراف تبحث عن تفسير آخر.

فتتهم الآخرين.

إضاعة لغوية | ﴿نَحْسُدُونَا﴾

الحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير أو كراهة ما أنعم الله به عليه.

لكن العجيب هنا أن هؤلاء لم ينظروا إلى منعهم باعتباره نتيجة لموقفهم السابق.

بل أعادوا تفسيره نفسياً:

أنتم تمنعوننا لأنكم تحسدوننا.

وهذه واحدة من حيل النفس القديمة:

بدل أن تبحث عن السبب في داخلها، تبحث عن متهم في الخارج.

اللطيفة التدبيرة | حين يصعب الاعتراف بالخطأ يتحول العالم كله إلى متهم

بعض الناس إذا رفضه أحد قال:

يكرهني.

وإذا نقد قال:

يغار مني.

وإذا حوسب قال:

يستهدفني.

وإذا ظهرت نتيجة اختياراته قال:

الناس ظلموني.

قد يقع الحسد والظلم فعلاً، ولا يجوز نفيهما عن الواقع.

لكن القرآن هنا يكشف نوعاً آخر:

استخدام اتهام الآخرين للهروب من مواجهة النفس.

وهذه حيلة خطيرة؛ لأنها تمنحك دائماً براءة جاهزة.

وما دمت بريئاً في كل قصة، فلن تتغير أبداً.

الرسالة الواقعية

حين تواجه نتيجة مؤلمة، لا تبدأ بالسؤال:

من الذي ظلمني؟

ابدأ قبله بسؤال:

ما نصيبي أنا من المسؤولية؟

ربما تكون مظلوماً فعلاً.

لكن حتى في الظلم قد يكون لديك شيء يمكن أن تتعلمه.

وإذا كنت مخطئاً، فإن أسرع طريق للنضج هو الاعتراف.

فالاعتراف لا يصغرك.

بل يحركك من الحاجة إلى اختراع عدو في كل مرة.

ثم يحتم الله الآية بقوله:

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وهذه خاتمة مذهلة.

لم يقل:

لا يعلمون.

بل:

﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾.

إضاءة لغوية | ﴿يَفْقَهُونَ﴾

الفقه في أصل اللغة هو الفهم الدقيق النافذ إلى المعنى.
فقد يعرف الإنسان الوقائع.

لكنه لا يفقهها.

قد يعرف أن المؤمنين ذهبوا.

وأنهم رجعوا.

وأن مغنم ظهرت.

وأنهم منعوا منها.

هذه معلومات.

لكن أين الفقه؟

الفقه هو أن يربط بين:

تخلفه بالأمس.

ورغبته اليوم.

والنتيجة التي واجهها.

والمرض الذي في قلبه.

وهنا نكتشف أن نقص الفقه ليس دائماً نقص معلومات.

قد يكون عجزاً عن قراءة النفس والسنن.

اللطفية التدريبية | يمكنك أن تعرف كل التفاصيل وتنشل في فهم القصة

قد يكون الإنسان واسع المعلومات قليل الفقه.

يعرف ماذا حدث.

ولا يعرف لماذا حدث.

يعرف أخطاء الآخرين.

ولا يرى نمطه المتكرر.

يعرف النتائج.

ولا يربطها بمقدماتها.

يعرف النصوص.

ولا يسمح لها أن تكشفه.

وهذا نوع مؤلم من قلة الفقه.
أن يمتلك العقل المادة كلها، لكن القلب يمنعه من تركيب الصورة التي تدينه.
ولهذا قال:
﴿لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

الرسالة الواقعية الجامعة للآيات

هذه الآيات الثلاث تقدم لنا صورة دقيقة جداً للنفس حين تجعل المصلحة بوصلتها.
في البداية:
تختلف حين يكون الطريق مخيفاً.
ثم:
تحمس حين تظهر الغنيمة.
فإذا منعت من الثمرة:
تتهم الآخرين بالحسد.
ثم تبقى عاجزة عن رؤية العلاقة بين البداية والنهاية.
وهكذا يمكن للإنسان أن يعيش داخل قصة صنعها بقراراته، ثم يقضي وقته يلوم الآخرين على فصولها.
أما الإيمان فيصنع شيئاً آخر.
يعلمك أن تسير مع الله قبل أن تظهر الغنيمة.
وأن تراجع نفسك قبل أن تتهم غيرك.
وأن تعترف بتقصيرك قبل أن تخترع لنفسك أعذاراً.
وأن تعرف، حتى بعد التقصير، أن باب العودة مفتوح:
﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.
ومن أجهل ما تكشفه هذه الآيات أن الفتح ليس امتحاناً لمن قاوموا قبل النصر فقط، بل امتحان لمن ظهروا بعد النصر أيضاً.
فوقت الشدة يكشف من يثبت.
ووقت الغنيمة يكشف من كان ينتظر الثمرة.
وبين الشدة والغنيمة توزن القلوب.
فلا تسأل نفسك فقط:
هل أستطيع أن أصبر إذا خسر الطريق؟
بل اسأل السؤال الأصعب:

لو لم يعد في الطريق شيء لي إلا رضا الله، فهل كنت سأظل أسير فيه؟
﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَنْتَوِلُوا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۚ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۚ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

بعد أن كشفت السورة رغبة المتخلفين في اللحاق بالمؤمنين حين ظهرت المغانم، لا تغلق أمامهم أبواب المستقبل.

وهذه لفظة تربوية بالغة الجمال.

فالقرآن لا يقول لهم:

لقد فشلتم مرة، إذن انتهى أمركم.
 بل يضع أمامهم امتحاناً جديداً:
 ﴿سُدُّعُونَ﴾.

ستأتيكم فرصة أخرى.

سيأتي يوم لا تكون فيه المسألة غنيمة قريبة سهلة، بل موقفاً يحتاج إلى صدق وتضحية.
 وعندئذ يمكن للمتخلف بالأمس أن يثبت اليوم أنه تغير.
 وهذا من رحمة الله بالإنسان:

الماضي قد يفسر موقعك، لكنه لا يلزم أن يكون سبباً.
 قد تكون قد أخفقت في اختبار سابق، لكن الله يفتح لك اختباراً جديداً لتكتب جواباً جديداً.

إضاءة لغوية | ﴿سُدُّعُونَ﴾

الدعاء في أصل اللغة هو النداء والطلب.

والتعبير بالمبني للمجهول:

﴿سُدُّعُونَ﴾

يضع التركيز على نفس الاستدعاء إلى التكليف.
 أي ستأتي لحظة ينادىكم فيها الواجب مرة أخرى.
 وهذا عجيب إذا قارناه بما سبق.

في الحديبية كانوا قد تخلفوا.

ثم أرادوا اللحاق حين ظهرت المغانم.

والآن يخبرهم الله أن باب البرهنة لم يغلق:

ستدعون مرة أخرى.

لكن ليس إلى رحلة يكون عنوانها الأول الغنيمة.

بل إلى:

﴿قَوْمٌ أُولَىٰ بِأُسِّ شَدِيدٍ﴾.

أى إن صدقهم سيختبر في بيئة لا تسمح للمصلحة أن تتنكر في صورة إيمان.

اللطيفة التدبيرية | الله قد يعيد إليك الامتحان الذي فشلت فيه

كم من مرة يمر الإنسان بالموقف نفسه في صور مختلفة.

يضعف أمام المال.

ثم يأتيه بعد زمن موقف آخر يتعلق بالمال.

يفشل في الصدق.

ثم يُختبر مرة أخرى في صدقه.

يستسلم لغضبه.

ثم تدور الأيام ويأتيه استفزاز جديد.

وكان الحياة تقول له:

هل تعلمت؟

ليست كل عودة للموقف تكراراً عبثياً.

أحياناً هي فرصة تصحيح.

قد لا تستطيع الرجوع إلى الوراء لتغير ما فعلت.

لكن يمكنك أن تثبت أنك لم تعد الشخص نفسه.

وهذه رحمة واسعة.

فالتوبة ليست دائماً دمة فقط.

قد تكون موقفاً جديداً يشبه الموقف القديم، لكنك هذه المرة تختار الله.

الرسالة الواقعية

إذا أخفقت في خلق أو واجب، فلا تجعل إخفاقك هو هويتك.

قل:

هذه كانت سقطة، وليست تعريفاً نهائياً لي.

ثم انتظر الامتحان التالي مستعداً.

إذا كنت جنت في موقف، فدرب قلبك حتى تكون أشجع في الذي بعده.

إذا فرطت في أمانة، فليكن وفاؤك في الأمانة التالية مضاعفاً.
إذا تركت طاعة لهوى، فلا تقل:
أنا هكذا.

هذه الجملة خطيرة.

الأصح:

كنت كذلك في ذلك الموقف، وسأسعى ألا أكون كذلك في الموقف القادم.
ثم قال:

﴿إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.

إضاعة لغوية | «بَأْسٍ»

البأس يدل على الشدة والقوة، ويأتي في القرآن للحرب والعذاب والقوة في المواجهة.
ووصفه هنا بـ:

﴿شَدِيدٍ﴾

يزيد المعنى قوة.

فالامتحان القادم ليس صورياً.

ليس موقفاً يستطيع الإنسان أن يدخل فيه لأن المكسب مضمون.
إنه يحتاج إلى استعداد لمواجهة المشقة.

وهنا يعاد تعريف الطاعة:

الطاعة ليست أن تفعل فقط ما جاء موافقاً لراحتك.

بل أن يظل الله هو المرجع حتى عندما يصبح الطريق شاقاً.

اللطيفة التدريبية | صدق الطريق يظهر حين تختفي ضمانات الراحة

كل إنسان يستطيع أن يسير إذا كان الطريق ممهداً، والناس يصفقون، والعاقبة العاجلة مضمونة.

لكن في أوقات البأس يظهر المعدن.

هناك يصبح السؤال:

هل كنت تتبع الله؟

أم كنت تتبع الراحة التي وجدتها في الطريق إلى الله؟

الفرق لا يظهر دائماً في أيام السعة.

يظهر يوم يصبح للوفاء ثمن.

ولهذا كانت الشدائد كاشفة.

لا لأنها تجعل الإنسان شيئاً لم يكنه دائماً، بل لأنها كثيراً ما تظهر ما كان محتبئاً تحت سطح حياته.

الرسالة الواقعية

لا تقيس صلابة مبادئك بما تقوله في الظروف الآمنة.

انظر إلى نفسك عند الخوف.

عند الخسارة.

عند العزلة.

عندما يكون ثمن الموقف أن تخسر منفعة.

هناك تستطيع أن تعرف مقدار ما تحول من قيمك إلى بنية داخلية، ومقدار ما لا يزال شعاراً جميلاً.

ثم يقول تعالى:

﴿فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

وهنا شيء بديع.

هؤلاء الذين عوتبوا قبل قليل، وتكشفت أعدارهم، وقيل فيهم ما قيل؛ ما زال الله يقول لهم:

إن تطيعوا.

أي إن المستقبل مفتوح.

إضاءة لغوية | ﴿تَطِيعُوا﴾

الطاعة من الانقياد والاستجابة.

وفي أصل مادتها معنى السهولة والانقياد.

والمهم هنا أن الآية لم تقل:

إن كنتم لم تخطئوا من قبل.

بل قالت:

﴿فَإِنْ تَطِيعُوا﴾.

الحساب هنا على القرار الجديد.

وكأن القرآن ينتشل الإنسان من أسر تاريخه.

قد يكون لك ماضٍ ضعيف.

لكن الطاعة التي تبدأ الآن يمكن أن تفتح صفحة أخرى.

ولهذا لا ينبغي للإنسان أن يقول:

فات الأوان.

ما دام باب التكليف مفتوحاً، فباب الإصلاح مفتوح.

اللطيفة التدبيرية | الله لا يحاكمك فقط بما كنت، بل يفتح لك باب ما يمكن أن تكون

من أخطر أسلحة الشيطان أن يحول الذنب القديم إلى قدر نفسي.
يقول لك:

أنت الذي تخلفت.

أنت الذي ضعفت.

أنت الذي كررت الخطأ.

فكيف ستتغير؟

لكن القرآن يقول للمتخلفين أنفسهم:

﴿فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

أي إن أبواب المستقبل لا تُغلق بخطايا الماضي إذا صدقت العودة.

وهذه من أكثر المعاني إحياءاً للروح.

الله الذي عاتبك هو نفسه الذي يدعوك.

والله الذي كشف خطأك هو نفسه الذي يفتح لك باب التعويض.

الرسالة الواقعية

إذا تبين لك أنك أخطأت في مرحلة من حياتك، فلا تجعل كل طاقتك في جلد نفسك.

هناك لحظة يجب أن تتحول فيها من:

لماذا فعلت؟

إلى:

ماذا سأفعل الآن؟

الندم بلا حركة قد يتحول إلى شلل.

أما الندم الذي يصنع طاعة جديدة فهو توبة حية.

ثم قال:

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

إضاعة لغوية | ﴿تَوَلَّوْا﴾

التولي هو الإعراض والانصراف.

والدقة في قوله:

﴿كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾

أن القرآن يربط الحاضر بالنمط السابق.
فالمشكلة ليست في سقطة عابرة إذا تلاها رجوع.
المشكلة في أن تتحول السقطة إلى نمط متكرر.
تخلقت بالأمس.
ثم تكرر المشهد.
ثم تكرر.
وهنا يصبح الخطأ طريقاً.

اللطيفة التدريبية | الخطر ليس أن تسقط مرتين، بل أن تتصالح مع اتجاه السقوط

كل إنسان يضعف.
لكن هناك فرقاً بين ضعف يؤلم صاحبه، وضعف أصبح له بيتاً يسكن فيه.
إذا عرفت نمطاً سيئاً يتكرر في حياتك، فلا تتعامل مع كل مرة كأنها حادثة مستقلة.
قد تكون القضية أعمق.
قد يكون هناك جذر.
خوف.
تعلق.
كبر.
شهوة.
حب مصلحة.

وحين تعالج الجذر، تتوقف كثير من الفروع.

الرسالة الواقعية

راقب الأخطاء المتكررة أكثر من الأخطاء المنفردة.
اسأل:

ما الذي يتكرر عندي؟
هل أهرب دائماً حين تشتد المسؤولية؟
هل أغضب بالنمط نفسه؟
هل أختار مصلحتي كلما وقع التعارض؟
هل أؤجل الطاعة بالطريقة نفسها؟
النمط المتكرر رسالة.
لا تتجاهلها.
ثم يقول سبحانه:

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

وهنا، في قلب خطاب شديد عن الطاعة والتخلف، يأتي ميزان الرحمة والعدل. فالله الذي شدد في شأن المتخلف بلا عذر، هو نفسه الذي رفع الحرج عن صاحب العذر الحقيقي.

وهذا من كمال الشريعة.

إضاءة لغوية | ﴿حَرَجٌ﴾

الحرج في اللغة يدل على الضيق.

ومن معانيه الإثم والمشقة الملازمة للتكليف.

فمعنى:

﴿لَيْسَ ... حَرَجٌ﴾

أي لا إثم ولا مؤاخذه فيما عجزوا عنه لعذرهم.

وهنا يظهر الفرق بين:

من لا يستطيع،

ومن لا يريد.

القرآن لا يخلط بينهما.

وهذه عدالة عظيمة.

فالله لا يكلف النفس ما لا تطيق، ولا يسوى بين عاجز صادق وقادر متخلف.

اللطيفة التدرية | الله لا يطالبك بما عجزت عنه، بل يسألك عما كان في وسعك

كم يتعب الناس أنفسهم بالمقارنة.

يرى إنسان قدرة غيره فيلوم نفسه لأنه لا يستطيع مثلها.

لكن الله لا ينظر إليك من زاوية قدرات الآخرين.

لك ميزانك.

وعذرک.

وطاقتك.

وظرفك.

ولذلك ذُكر الأعمى والأعرج والمريض صراحة.

حتى يعرف المؤمن أن رحمة التكليف جزء من التكليف نفسه.

الله لا يريد منك صورة مثالية مستحيلة.

يريد صدقك داخل استطاعتك.

لا تحمل نفسك ما لم يحملك الله.
لكن لا تحول الرخصة إلى ذريعة.
هناك فرق بين:
أنا عاجز.
وبين:

أنا أستطيع لكنني لا أريد.
وهذه المنطقة تحتاج إلى صدق شديد مع النفس.
فالؤمن لا يقسو على نفسه فيما عفا الله عنه، ولا يدللها فيما كلفه الله به.
ثم تعود الآية إلى القاعدة:
﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.
وكان كل التفاصيل تعود في النهاية إلى هذا المحور:
الطاعة.

العذر الحقيقي معتبر.
لكن الأصل لمن استطاع هو الاستجابة.
وهنا يصبح النصر الأكبر ليس أن تدخل أرضاً.
بل أن تدخل الجنة.

اللطيفة التدبيرية | القرآن يربط حركة القدم بمصير الروح

قد يبدو القرار صغيراً في لحظته:
أخرج أو أتخلف.
أقول الحق أو أسكت.
أفي أو أنكث.
لكن القرآن يربط هذه القرارات بمآلات أكبر بكثير مما نرى.
اللحظة العابرة قد تكون جزءاً من بناء الأبدية.
وهذا يعطي الحياة وزناً هائلاً.
فأنت لا تعيش دقائق متناثرة.
أنت تبني مجموعها مصيراً.

فالإنسان لا يصنع مصيره بقرار ضخم كل يوم.
بل بأعمال دقيقة:

صلاة في وقتها.

كلمة صدق.

نظرة تغضها.

أمانة تؤديها.

ظلم تمتنع عنه.

وعد تفي به.

هذه الحجارة الصغيرة هي التي يبنى بها الطريق الكبير.

ثم تأتي الآية التي يتغير معها الجو كله:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾.

ما أهيئها من جملة.

بعد الحديث عن المتخلفين، والأعداء، والتولي؛ تنتقل السورة إلى أولئك الذين حضروا.

لكن القرآن لا يقول فقط:

كانوا شجعاناً.

أو:

كان موقفهم عظيماً.

بل يقول شيئاً أعلى:

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأي مكسب في الأرض يمكن أن يقارن بهذا؟

إضاعة لغوية | ﴿رَضِيَ﴾

الرضا ضد السخط.

وإذا أخبر الله عن رضاه عن عباده فذلك من أعظم البشارات.

والتعبير بالفعل الماضي:

﴿رَضِيَ اللَّهُ﴾

يحمل تقريراً ثابتاً لمقام أولئك المؤمنين في ذلك المشهد.

إنه ليس ثناءً بشرياً يزول بتغير الآراء.

بل شهادة من الله.

ولهذا عرفت تلك البيعة ببيعة الرضوان.

فالذين مدوا أيديهم تحت الشجرة كانوا يكتبون في لحظة قصيرة واحدة من أعظم صفحات أعمارهم.

اللطفية التدبيرة | قد تمر في حياتك لحظة واحدة ترفع عمراً كاملاً

نحن نقيس الحياة بالسنوات.

لكن الله قد يزن بعض الأعمار بلحظة.

لحظة صدق.

لحظة تضحية.

لحظة ثبات.

لحظة تقول فيها:

نعم.

حين يريد منك الهوى أن تقول:

لا.

أولئك الصحابة لم يكونوا يعرفون ساعة مدوا أيديهم تحت الشجرة أن القرآن سيخلد ذلك المشهد إلى قيام الساعة.

كانوا يعيشون موقفهم.

لكن السماء كانت تسجل:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذا يعلبك ألا تحتقر اللحظات التي لا يراك فيها إلا الله.

فرب لحظة خفية غيرت ميزان العمر كله.

الرسالة الواقعية

لا تبحث فقط عن الأعمال الكبيرة التي يراها الناس.

ابحث عن مواطن الرضا.

رب موقف تستطيع فيه أن تنتصر لنفسك فتعفو الله.

رب مال تستطيع أن تأخذه فتتركه ورعاً.

رب كلمة حق لا يسمعها إلا قليلون.

رب سجدة في آخر الليل.

رب موقف ثبات حين يتراجع الجميع.

أنت لا تعرف أي لحظة سيكتب الله بها لك خيراً لا تتصوره.

ثم يقول:

﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾.

والشجرة نفسها لم تكن هي القضية.
المكان بسيط.

لكن ما وقع تحته كان عظيماً.
وهنا معنى جميل جداً:

قداسة اللحظة لا تأتي دائماً من نخامة المكان، بل من صدق ما يحدث فيه.
شجرة في الصحراء.

وأيدٍ تمتد.

وقلوب تفي.

فصار المكان جزءاً من ذاكرة القرآن.

اللطفية التدبيرية | الله يصنع المعاني العظيمة في الأماكن البسيطة

ليس كل حدث عظيم يحتاج إلى مسرح عظيم.
غار صغير غير التاريخ.

وبيت متواضع قد يخرج منه عبد صالح.

وشجرة في صحراء تصبح شاهداً على بيعة رضي الله عن أهلها.

فلا تنتظر الظروف المثالية لتكون صادقاً.

قد تكون اللحظة التي تصنع قدرك مخبأة داخل يوم عادي جداً.

ثم يأتي السر:

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

وهنا نصل إلى قلب الآية.

لم يقل:

رأى أيديهم.

مع أنه ذكر البيعة.

بل تجاوز الأيدي إلى ما وراءها:

القلوب.

إضاءة لغوية | ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾

علم الله سبحانه سابق شامل لا يطرأ عليه خفاء ثم انكشاف، تعالى الله عن ذلك.

والمعنى هنا إظهار أثر هذا العلم في الجزاء والثناء؛ فقد علم صدقهم وإخلاصهم وثباتهم،
فأنزل عليهم السكينة وأثابهم.

وهذه العبارة تفسر لماذا لم تكن قيمة البيعة في شكلها الخارجي وحده.

أيد كثيرة تستطيع أن تمتد.
لكن الله يعلم:
أي يد حركها الصدق.
وأي كلمة خرجت من قلب مخلص.
وهذا ميزان دقيق جداً.

اللطيفة التدبيرية | الله لا يتخدع بالمشهد

نحن نرى الصورة.
الله يعلم السريرة.
نحن نرى من وقف.
الله يعلم لماذا وقف.
نرى من تكلم.
الله يعلم ماذا أراد بكلامه.
نرى من بذل.
الله يعلم هل بذل لله أم للثناء.
ولهذا فإن أكبر مشروع إصلاح في حياة المؤمن هو أن تصبح باطنه جديراً بما يظهره
ظاهره.

لا أن تبدو صادقاً.
بل أن تكون صادقاً.
لا أن تبدو شجاعاً.
بل أن يكون ثباتك لله.
لا أن تصنع مشهداً صالحاً.
بل أن يحمل المشهد قلباً صالحاً.

الرسالة الواقعية

قبل العمل الكبير اسأل نفسك:
لو لم يعلم أحد بهذا، هل سأفعله؟
لو لم يمدحني أحد، هل سأثبت؟
لو نُسب الفضل لغيري، هل سأظل أريد نجاح الخير؟
هذه الأسئلة تفتش القلب.
لأن الله الذي قال:

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾

لا يزن العمل بحجمه الظاهر فقط.

ثم جاء الجزء الأول:

﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾.

وهنا تعود السكينة مرة أخرى.

وقد رأيناها في أول السورة:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فكرارها يكشف أنها من الكلمات المركزية في سورة الفتح.

وهذا عجيب:

السورة اسمها الفتح.

لكن من أكثر عطاياها تكراراً:

السكينة.

وكأن القرآن يقول:

قبل أن يفتح الله لك ما حولك، قد يفتح فيك مساحة من الطمأنينة تستطيع بها حمل الفتح.

إضاءة لغوية | ﴿فَأَنْزَلَ﴾

الإنزال يوجي بورود العطاء من عند الله.

فالسكينة لا تُستخرج بالقوة من القلب المضطرب.

تُطلب.

وُستجلب بأسبابها من الصدق والطاعة والتوكل.

لكن منزلها الحقيقي هو الله.

والتعبير هنا مرتبط بما قبله:

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾.

صدق في الداخل.

فسكينة من السماء.

وهذه علاقة تستحق التأمل.

اللطفية التدبرية | بعض الطمأنينة مكافأة على صدق لا يعرفه الناس

قد يستغرب الناس هدوء إنسان في شدة.

لا يعرفون السر.

ربما لم تتغير ظروفه.
لكن بين قلبه وربه شيء.
صدق.
وتسليم.
وثقة.
فتأتي السكينة.

وهكذا قد تكون الطمأنينة نفسها ثمرة أخلاقية وروحية، لا مجرد مزاج.

الرسالة الواقعية

حين تطلب السكينة، لا تسأل فقط:
كيف أهدئ نفسي؟
اسأل كذلك:

هل هناك شيء بيني وبين الله يحتاج إلى إصلاح؟
فأحياناً لا يكون القلق كله بسبب كثرة المشكلات، بل بسبب اضطراب الداخل.
والقلب الصادق قد يحمل مشكلة كبيرة بطمأنينة، بينما يحمل القلب المتشظي مشكلة صغيرة كأنها جبل.

ثم يقول:
﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

إضاءة لغوية | ﴿أَثَابَهُمْ﴾

الثواب في أصل معناه يرجع إلى معنى الرجوع؛ أي ما يرجع إلى الإنسان جزاءً على عمله.
وهنا جعل الفتح نفسه ثواباً.

فهو لم يكن مجرد تطور سياسي أو عسكري.
كان جزاءً على صدق.

وهذا يعيد ربط التاريخ بالأخلاق.

الأحداث لا تجري في القرآن بوصفها مادة صماء منفصلة عن القلوب.
هناك أعمال.

وهناك صدق.

وهناك طاعة.

ثم تأتي ثمار يقدرها الله.

اللطيفة التدريبية | بعض الفتوح تُزرع في القلب قبل أن تُحصد في الأرض

قال:

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾

ثم:

﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾

ثم:

﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

تأمل الترتيب:

قلب.

سكينة.

فتح.

كأن الخارج جاء بعد الداخل.

وهذه ليست معادلة ميكانيكية نطبقها على كل حدث، لكنها إشارة تربوية قوية:

أن بعض التغيير الذي نطلبه في الواقع يبدأ بإصلاح شيء لا يراه أحد داخل الإنسان.

الرسالة الواقعية الجامعة للآيات

هذه الآيات الثلاث ترسم قوساً كاملاً بين فرصة جديدة ورضا الله.

المتخلف بالأمس لا يغلق عليه الباب:

﴿سَتَدْعُونَ﴾.

فإن صدق:

﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

وصاحب العذر الحقيقي لا يُظلم:

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ...﴾.

والصادقون الذين دخلوا الامتحان من أوله لم تضيع لحظتهم:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولم يكن سر منزلتهم مجرد حركة الأيدي:

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

ثم جاءت أعظم هندسة للفتح في هذه السورة:

صدق في القلب

↓

سَكِينَةً مِّنَ اللَّهِ

↓

فَتْحٌ قَرِيبٌ.

وهنا يتغير السؤال كله.

بدل أن تقول فقط:

متى يفتح الله لي؟

قل أيضًا:

ماذا يريد الله أن يجد في قلبي حين يأتي الفتح؟

فالفتح ليس دائمًا جائزة لمن عرف الطريق فقط.

قد يكون ثمرة لقلب عرفه الله في ساعة الخوف، فراه ثابتًا.

وتلك ربما من أعظم بشارات سورة الفتح:

أن الله قد ينظر إلى لحظة واحدة من صدقك، ثم يجعل بعدها من السكينة والفتح ما لم يكن يخطر لك.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وَعَدَ كُرَّ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾

في الآيات السابقة بلغنا ذلك المشهد العالي:

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

وهنا يبدأ القرآن في كشف بعض ثمار ذلك الصدق:

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾.

فالصابرون الذين ثبتوا ساعة لم تكن الغنيمة ظاهرة، ستأتيهم الغنيمة بعد ذلك.

وهذه المفارقة من أجل ما في السورة:

الذين جعلوا الغنيمة شرطًا للسير تأخروا.

والذين ساروا لله قبل أن تظهر الغنيمة، جاءتهم الغنيمة وهي تتبعهم.

كأن السورة تربي القلب على قاعدة دقيقة:

لا تجعل الثمرة سبب صدقك، بل اجعل صدقك لله سابقًا على ظهور الثمرة.

إضاءة لغوية | ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾

المغم هو ما يُنال من فائدة ومكسب، وأصله من مادة غ ن م.
لكن الالاف هنا ليس مجرد ذكر المغانم، بل وصفها:
﴿كَثِيرَةً﴾.

فقد خرج المؤمنون إلى الحديبية في ظرف لم يكن ظاهر المشهد يوحي بكثرة شيء.
رجعوا بلا عمرة في ذلك العام.
وقبلوا شروطاً ثقلت على بعض النفوس.
لكن الله كان يفتح وراء تلك اللحظة أبواباً كثيرة.
وهنا يظهر الفرق بين المشهد والمآل.
المشهد محدود.
أما ما سيخرج منه فقد يكون أوسع مما تسمح به لحظة الرؤية.
ومن هنا كان الإيمان بالقدر محتاجاً إلى تواضع معرفي:
لا تجعل ما تراه الآن هو كل ما يوجد.

اللطيفة التدبيرية | ما تراه من القدر ليس إلا واجهته الأولى

الإنسان يحكم على حياته من اللحظة التي يعيشها.
إن خسرت الآن قال:
خسرت.
إن تأخر قال:
فاتني.
إن أغلق الباب قال:
انتهى.
لكن القرآن يعلمك أن الحدث قد تكون له ذيول لم تصل إليها بعد.
الحديبية في ساعتها شيء.
والحديبية بعد أن انكشفت نتائجها شيء آخر.
كم من حدث في حياتك لو حكم عليه في يومه لقلت:
شر.
ثم مر الزمن فاكشفت أنه حرك أشياء لم تكن تتحرك.
وأغلق طريقاً كان سيؤذي.
وكشف إنساناً.
وعلمك شيئاً.
ودفعك إلى باب لم تكن ستفتحه.

ليس معنى هذا أن كل ألم ستعرف حكمته في الدنيا.
لكن معنى الإيمان:
أنك لا تجعل اللحظة القصيرة قاضياً على التدبير الطويل.

الرسالة الواقعية

إذا وقع أمر لا تفهمه، لا تطلب من نفسك أن تراه جميلاً فوراً.
لكن لا تحكم عليه حكماً نهائياً أيضاً.
قل:

هذا مؤلم الآن.

هذا خسارة فيما أراه الآن.

لكنني لا أملك الصفحة التالية.

هذه الجملة تمنعك من إنكار الألم، وتمنعك في الوقت نفسه من اليأس.
ثم يختم الله الآية:

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

وقد مرت بنا هذه الثنائية من قبل.

لكنها هنا تأتي بعد ذكر الغنائم.

وكان الله يقول:

ما جرى لم يكن صدفة.

والثمار لم تأت منفصلة عن تدبير سابق.

وراء ما رأيتموه:

عزة لا تغلب.

وحكمة لا تعبث.

إضاءة لغوية | ﴿حَكِيمًا﴾

الحكمة هي وضع الشيء في موضعه اللائق به على وفق العلم والعدل والغاية.

ومن هنا يصبح توقيت العطاء نفسه جزءاً من الحكمة.

فقد يكون الشيء خيراً لك، لكن ليس الآن.

وقد يكون الباب مناسباً، لكن قلبك لم ينضج لحملة.

وقد تكون الغنيمة نافعة، لكن لو جاءت قبل الامتحان لأفسدت معنى الامتحان.

فالصحابة ثبتوا أولاً.

ثم جاءت الثمار.

وهذا ترتيب له دلالة.

نحن نسأل:

لماذا تأخر العطاء؟

لكننا قلنا نسأل:

ماذا كان سيحدث لي لو جاء مبكراً؟

بعض النعم تحتاج إلى قلب تم تدريبه.

المال يحتاج إلى قلب لا يعبد.

والسلطة تحتاج إلى قلب لا يطغى بها.

والشهرة تحتاج إلى قلب لا يفقد نفسه في عيون الناس.

والنصر يحتاج إلى نفس لا تنسى من أعطاه النصر.

ولهذا قد تكون التربية قبل العطاء جزءاً من حماية العطاء نفسه.

الرسالة الواقعية

إذا تأخر عليك شيء تطلبه، لا تجعل زمن الانتظار فارغاً.

اسأل:

لو جاءني غداً، ما الذي يجب أن يكون قد نضج في داخلي حتى لا يفسدني؟

فالانتظار ليس دائماً مساحة ميتة.

قد يكون ورشة إعداد.

ثم يقول تعالى:

﴿وَعَدَ كُرُّ اللَّهِ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾.

وهنا تتسع زاوية النظر أكثر.

ليس أمامكم شيء واحد.

هناك مغانم كثيرة موعودة.

وما جاءكم الآن إنما هو:

﴿هَذِهِ﴾.

أي جزء قريب من وعد أكبر.

وهذه كلمة تجعل القلب يتعلم ألا يحصر فضل الله فيما وصل إليه.

إضاءة لغوية | ﴿فَعَجَّلَ﴾

التعجيل هو تقديم الشيء وإحضاره في وقت قريب.

فإذا كان هذا قد عَجِّلَ، فالمعنى أن وراءه ما لم يأت بعد.

وهذه لطيفة رائعة:
أحياناً يعطيك الله شيئاً ليس بوصفه نهاية العطاء، بل عربوناً على وعد أكبر.
ومن هنا يصبح الشكر نفسه مقروناً بالرجاء.
تشكراً ما وصل.
وتعلم أن خزائن الله لم تنته.

اللطيفة التدرية | لا تجعل النعمة التي وصلت إليك سقف ظنك بالله

بعض الناس إذا حصل على شيء ظنه نهاية الطريق.
لكن القرآن يربي القلب على الاتساع.
هذه نعمة.
لكن فضل الله أكبر.
هذا فتح.
لكن وراءه فتوح.
هذه إجابة.
لكن ليست آخر ما عند الله.
ليس المقصود أن يتحول الإنسان إلى طامع لا يشبع.
بل أن يعرف أن المانح أعظم من العطية.
فإذا تعلق بالله، لم تصبح النعمة نهاية علاقتك به.

الرسالة الواقعية

حين يأتيك خير كنت تنتظره، افعل أمرين:
اشكر.
ولا تتوقف عن السير.
فالإنسان قد يفسده الوصول إذا ظن أنه استغنى عن الطريق.
والحمد الحقيقي ليس احتفالاً بالنعمة فقط، بل استعمالها في مزيد من الطاعة.
ثم يقول:
﴿وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ﴾.
وهنا تتقل الآيات النظر من ما أعطيتم إلى ما دُفع عنكم.
وهذه منطقة واسعة من النعم يغفل عنها الإنسان.
نحن نرى الأشياء التي وصلتنا.
لكننا لا نرى دائماً الأشياء التي كان يمكن أن تصيبنا ولم تصبنا.

إضاءة لغوية | ﴿كَفَّ﴾

الكف هو المنع والحبس.

فيقال: كف يده عن الشيء، أي منعها من الوصول إليه.

وقوله:

﴿وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ﴾

يصور حماية وقعت بمنع الأذى من الوصول.

والمهم هنا أن الحفظ نعمة، حتى لو لم تر شيئاً يحدث.

بل أحياناً يكون أعظم لطف الله بك هو شيء لم يحدث أصلاً.

اللطيفة التدبيرية | هناك نعم لا تستطيع عدّها لأنها لم تقع أمام عينيك

كم حادثاً لم يقع؟

وكم شراً صرف؟

وكم قراراً ألهمت ألا تتخذه؟

وكم إنساناً أبعده الله عن طريقك؟

وكم كلمة كادت أن تقال ثم لم تُقل؟

وكم باباً فُتح لك بعيداً عن موطن الأذى؟

أنت تستطيع عد بعض ما أعطاك الله.

لكن كيف تعد ما منعه عنك؟

وهذه زاوية تفتح باباً هائلاً للشكر.

فاللطف ليس فقط أن يعطيك الله ما تحب.

بل أن يحجب عنك ما لا تعرف أنه كان قادماً إليك.

الرسالة الواقعية

حين تعد نعمك، لا تذكر الموجودات فقط.

اذكر السلامة.

الأشياء التي لم تنكسر.

الآزمات التي لم تقع.

المخاطر التي مرت ولم تصيبك.

فالعادة تجعل السلامة تبدو لنا أمراً طبيعياً، مع أنها من أوسع أبواب النعمة.

ثم يقول:

﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

وهنا يرتقي الحدث من كونه مكسباً إلى كونه آية.
فالله لا يريد منهم أن يخرجوا من التجربة بمال فقط.
بل بمعرفة.

وبصيرة.

ويقين.

إضاءة لغوية | ﴿آيَةٌ﴾

الآية هي العلامة والدلالة.

أي أن ما وقع ينبغي ألا يمر في الذاكرة كحدث تاريخي مجرد.
بل كعلامة تشير إلى شيء أعظم:

صدق الوعد.

ولطف التدبير.

وحفظ الله.

وقدرة الله على إخراج الفتح من موضع لم يكن الناس يرونه فتحاً.

وهنا يظهر الفرق بين من يعيش الأحداث، ومن يقرأ الأحداث.

قد يمر الناس جميعاً بالمشهد نفسه.

لكن المؤمن يلتقط منه آية.

اللطفية التدبيرية | التجربة التي لا تزيد معرفتك بالله قد ضاع نصف معناها

يمر الإنسان بمحنة.

ثم تنتهي.

فيقول:

الحمد لله انتهت.

لكن القرآن يريد شيئاً أعمق:

ماذا تعلمت عن الله؟

ماذا تعلمت عن نفسك؟

أي وهم سقط؟

أي يقين نشأ؟

ما الذي لن تعود تنظر إليه بالطريقة القديمة؟

لأن التجارب حين تصبح آيات، لا تنتهي بانتهاء الحدث.

تبقى في القلب مرجعاً.

وحين تأتي محنة جديدة تقول لنفسك:

لقد رأيت لطف الله من قبل.
وهكذا تصبح الذاكرة نفسها مصدر ثبات.

الرسالة الواقعية

اصنع لنفسك «ذاكرة إيمانية».
لا تسجل فقط الأزمات.
سجل كيف خرجت منها.
الأبواب التي فُتحت بعد أن ظننتها مغلقة.
الأشخاص الذين سخرهم الله لك.
المخاوف التي لم تقع.
الدعوات التي رأيت أثرها.
فالقلب ينسى بسرعة.
وحين ينسى ألطف الأُمس، يسيء الظن في أزمة اليوم.
ثم قال:
﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

وهنا أمر مذهش.
ما علاقة المغامر والهداية؟
القرآن يقول إن هذه الأحداث نفسها يمكن أن تكون وسيلة هداية.
لأن الهداية ليست معلومات فقط.
قد يهديك الله بتجربة.

بموقف.

بانكسار.

بنصر.

بتأخير.

بحفظ لم تتوقعه.

إضاءة لغوية | ﴿يَهْدِيكُمْ﴾

الهداية هي الدلالة الموصلة إلى الطريق.

والهداية في القرآن مراتب.

منها معرفة الطريق.

ومنها التوفيق للسير فيه.

ومنها زيادة البصيرة بعد السير.

وهنا تبدو التجربة نفسها جزءاً من الهداية.
فالصحابة لم يخرجوا من الحديبية بالموقف السياسي فقط.
خرجوا بمعرفة أعمق برهم.
وهذه مكاسب لا تقاس بما حُمل من الغنائم.

اللطيفة التدريبية | ربما كان الحدث الذي أتعبك درساً لم يكن يمكن أن نتعلمه بغيره

هناك معان تسمعها ألف مرة.
ثم تأتي الحياة فتعلمك إياها مرة واحدة، فتستقر.
تقرأ عن التوكل.
ثم تُغلق أمامك الأسباب فتتعلم التوكل.
تقرأ عن الصبر.
ثم تنتظر شيئاً طويلاً فتعرف الصبر.
تقرأ عن أن العاقبة قد تأتي من حيث لا تدري.
ثم ترى ذلك في حياتك.
وعندها ينتقل المعنى من الكتاب إلى الدم.
وهذا نوع من الهداية.

الرسالة الواقعية

حين تقع لك تجربة كبيرة، لا تسأل فقط:
كيف أخرج منها؟
اسأل كذلك:
بأي معرفة يريد الله أن أخرج منها؟
فقد تنتهي الأزمة ويظل درسها.
وإذا بقي الدرس، لم تكن المعاناة كلها ضائعة.
ثم تفتح الآية الحادية والعشرون باباً أوسع:
﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾.
هذه من أكثر آيات السورة إثارة للرجاء.
هناك أخرى.
شيء لم تصلوا إليه.
شيء لم تقدرُوا عليه بعد.
لكن العجيب:

أن عجزكم عنه لا يعني أنه خرج من دائرة القدرة.
أنتم: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾.

أما الله: ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾.

ما أوسع المسافة بين الجملتين.
إضاءة لغوية | ﴿أَحَاطَ﴾
الإحاطة تدل على الشمول والاستيلاء والعلم التام بما يحيط بالشيء من جميع جهاته.
وقوله: ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾

يعطي المعنى منتهى الطمأنينة.
ما لم تصل أنت إليه ليس مجهولاً عند الله.
وما لم تملكه أنت ليس خارج ملكه.
وما لم تجد إليه طريقاً فالله محيط به علماً وقدرةً وتديراً.
وهذه العبارة قادرة وحدها على إعادة بناء تصور الإنسان عن المستحيل.

اللطيفة التدبيرية | حدود قدرتك ليست حدود القدر

من أكبر أخطائنا أننا نسقط عجزنا على المستقبل.
نقول:

أنا لا أستطيع.
ثم تتحول الجملة في داخلنا إلى:
إذن لن يحدث.
والقرآن يفصل بين الأمرين:
﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾

هذا وصف لكم.
﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾

وهذا وصف للرب.
فلا تخلط بينهما.
قد تعجز أنت عن فتح الباب.

لكن ذلك لا يعني أن الباب عصيَّ على الله.
قد لا تعرف كيف تأتي النتيجة.
لكن جهلك بالطريق لا يعني عدم وجود الطريق.
وهنا يتنفس الرجاء.

الرسالة الواقعية

عندما تقول:
لا أرى حلاً.
أضف مباشرة:
لكن عدم رؤيتي للحل ليس دليلاً على عدم وجوده.
وعندما تقول:
لا أقدر.

أضف:
لكن قدرة الله ليست امتداداً لقدرتي.
هذه الإضافة الصغيرة تغير بنية التفكير كلها.
هي لا تعني ترك الأسباب.
بل تمنعك من تأليه حدود الأسباب.
ثم تختم الآية:
﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

إضاءة لغوية | ﴿قَدِيرًا﴾
القدرة هي التمكن من الفعل من غير عجز.
والله سبحانه على كل شيء قدير.
فلم يأت ختام الآية هنا مجرد تقرير عقدي منفصل عن السياق.
بل جاء في الموضع الذي قيل فيه:
﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾.

أنتم لم تقدرُوا.
والله قدير.
وهنا يضع القرآن عجز الإنسان وقدرة الله في سطر واحد تقريباً، لكي تعرف أين ينبغي أن
ينتهي اعتمادك.

اللطفية التدبيرية | الإيمان لا ينكر عجزك، بل يضع عجزك في حضرة قدرة الله

هناك فهم سطحي للإيمان يطلب من الإنسان أن يتظاهر بأنه قوي دائماً.
لكن القرآن لا يفعل ذلك.

قال بوضوح:
﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾.

أي نعم، هناك أشياء لا تقدرُونَ عليها.
الإيمان ليس إنكار الضعف.
إنما هو أن تعرف أن ضعفك ليس الكلمة الأخيرة.
يمكنك أن تقول:
أنا عاجز.

لكن لا تقل:
إذن انتهى الأمر.

قل:
أنا عاجز، وربِّي على كل شيء قدير.
وهذه ليست مجرد عبارة تعزية.
إنها تصحيح لمعادلة الوجود.

الرسالة الواقعية الجامعة للآيات

الآيات الثلاث تعيد بناء علاقتك بالنعمة والمستقبل والعجز.
إذا جاءك خير، فتذكر أن وراءه خيراً لم تره بعد:
﴿وَعَدَ كُرُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾.

إذا نجاك الله من شر، فلا تحتقر نعمة المنع:
﴿وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ﴾.

إذا مررت بتجربة، فلا تخرج منها بالنتيجة وحدها، خذ منها الآية والهداية:
﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

وإذا وقفت أمام باب لا تملك فتحه، فلا تجعل عجزك تعريفاً للمستقبل:
﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾.

وهنا تبليغ السورة معنى بالغ الجمال:
لقد كان المؤمنون في الحديبية أمام شيء لم يفهموه.
ثم أراهم الله بعض ثماره.

ثم قال لهم ضمناً:

وما زالت وراء هذا أشياء أخرى.

وكان التربية الإيمانية لا تريد منك أن تتعلم فقط أن الله وفى بوعده سابق.

بل أن تستعمل ما رأيت من وفائه ليحسن ظنك بما لم تره بعد.

وهذه مرتبة عالية من اليقين:

أن تحول أطفاف الماضي إلى جسور نحو المستقبل.

فكلها قال لك عجزك:

لا أقدر.

تذكرت أن القرآن لم ينكر هذه الحقيقة.

لكنه أكلها بالحقيقة الأعظم:

﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْهَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ

خَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَאֵيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ

بِطَنٍ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾

بعد أن قالت السورة للمؤمنين:

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾

تأتي هذه الآيات لتكشف جانباً آخر من تلك الإحاطة.

فإنه لم يكن يدبر فقط ما سيأتي.

بل كان يدفع أيضاً ما كان يمكن أن يقع.

وهنا نتعلم شيئاً مهماً في قراءة القدر:

نحن عادة نرى الأحداث التي وقعت.

أما الأحداث التي منعت من الوقوع، فلا نعرف أكثرها.

نرى الفتح.

لكننا لا نرى عدد الحروب التي صرفها الله.

نرى النجاة.

ولا نرى كم طريقاً إلى الهلاك أغلق قبل أن نصل إليه.

ولهذا تبدأ الآيات بافتراض:

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي لو تطور المشهد إلى مواجهة مفتوحة، لما كانت النتيجة كما يتوهم أصحاب الحسابات الظاهرة.

إضاءة لغوية | ﴿لَوْلُوا الْأَدْبَارَ﴾

الأدبار جمع دبر، وهو ما خلف الإنسان.

وقول العرب: ولّى دبره، كناية عن الهرب والانصراف عن المواجهة.

فالتعبير لا يقول فقط:

سيهزمون.

بل يرسم صورة الهزيمة:

يتحول الوجه الذي كان مواجهاً لك إلى ظهر يبتعد عنك.

وهذه صورة محسوسة لانقلاب ميزان القوة.

واللافت أن المسلمين يوم الحديبية لم يكونوا في وضع من خرج أصلاً لمعركة؛ بل خرجوا محرمين يريدون العمرة.

ومع ذلك يطمئنهم الله:

لو وقع القتال الذي تخافون عواقبه، لم تكونوا متروكين.

وهنا يظهر مرة أخرى الفرق بين:

ما تراه القوة.

وما يعلمه الله عن مآل القوة.

اللطيفة التدبيرية | ليس كل خصم يبدو قوياً يملك نهاية المعركة

من أكثر ما يربك الإنسان أن يخلط بين قوة البداية وقوة النهاية.

قد يبدأ الخصم متمكناً.

صوته أعلى.

موارده أكبر.

موقعه أقوى.

لكن التاريخ ليس لقطة ثابتة.

والقرآن يعلم المؤمن ألا يعبد اللحظة.

فالذي أمامك الآن ليس بالضرورة هو الذي سيبقى بعد دوران الأحداث.

وهذا لا يعني الاستهانة بالخصوم، ولا ترك الإعداد، ولا تجاهل الواقع.

بل يعني شيئاً أدق:

لا تجعل موازين اللحظة نبوءة نهائية.

فالواقع يُقرأ.

الرسالة الواقعية

إذا واجهت طرفاً أقوى منك في خصومة أو منافسة أو موقف، فلا تبن قرارك على الرهبة وحدها.

قيّم الواقع بدقة.

اعرف حدودك.

استعد.

لكن لا تسمح لضخامة الطرف الآخر أن تهزمك نفسياً قبل أن يبدأ الموقف.

فكثير من الهزائم تبدأ حين يسلم الإنسان داخلياً بأن الآخر لا يُغلب.

والقرآن يعيد للمؤمن توازنه:

هناك فرق بين أن تقول:

خصمي قوي.

وبين أن تقول:

خصمي يملك النهاية.

الأولى قد تكون واقعاً.

والثانية ليست لأحد من البشر.

ثم يقول تعالى:

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

إضاءة لغوية | ﴿وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

الولي من الولاية، وهي القرب الذي يترتب عليه تولى الأمر والحماية.

والنصير هو من يعين على دفع الضرر وتحقيق الغلبة.

واجتماع اللفظين يوسع المعنى:

لن يجدوا من يتولى أمرهم.

ولا من ينصرهم إذا جاء حكم الله.

قد يكون للإنسان حلفاء كثيرون.

لكن الحلفاء لا يخرجون عن سلطان الله.

وقد تكون له شبكة واسعة من الأسباب.

لكن السبب لا يملك لنفسه شيئاً مستقلاً عن مشيئة الله.

وهذا هو المعنى الذي تكررهُ السورة بألفاظ متعددة:

القوة ليست في كثرة الأيدي فقط، بل فيمن يملك الأيدي كلها.

في الدنيا صور من القوة قد تخدع صاحبها.

جمهور.

مال.

منصب.

علاقات.

سلاح.

شهرة.

لكن القرآن يفرق بين وجود الأسباب وبين كونها نافعة بالفعل.

فقد يكون حولك ألف شخص، ولا يستطيع واحد منهم أن يدفع عنك ما قضاه الله.

وقد تكون وحدك في ظاهر المشهد، ثم يفتح الله لك من الأسباب ما لم يكن في حسابك.

ولهذا ليس السؤال:

من معي؟

بل قبله:

مع من أنا؟

الرسالة الواقعية

لا تبني أمنك النفسي بالكامل على الأشخاص.

أحبهم.

استعن بهم.

اشكرهم.

لكن لا تجعلهم السقف الأخير لأمانك.

فالناس يتغيرون.

والقدرات تتبدل.

والتحالفات تتفك.

أما التعلق بالله فيعطي القلب شيئاً لا تستطيع التحالفات البشرية وحدها أن تعطيه:

أن تعرف أن فقدان سبب لا يعني فقدان رب الأسباب.

ثم تأتي الآية:

﴿سَنَ اللَّهُ إِلَهِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

وهنا يرتفع الخطاب من واقعة الحديدية إلى قانون في التاريخ.

إضاءة لغوية | ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾

السُّنَّةُ في أصل العربية هي الطريقة المطردة والمسلك الجاري.
والمقصود هنا ما أجزاه الله من سننه في نصر رسله وأوليائه وإبطال كيد المعاندين حين
تستكمل الشروط التي تقتضيها حكمته.

فالقرآن لا يقدم التاريخ كفوضى.

هناك سنن.

الأسباب لها آثار.

الإيمان له مقتضيات.

الظلم له مآلات.

الصبر له ثمار.

لكن السنة الإلهية ليست معادلة بشرية ساذجة نحدد نحن توقيتها وكيفيةها.

قد نأخر آثارها.

وقد تأتي بصور لا نتوقعها.

لكنها لا تتحول إلى عبث.

اللطيفة التدبيرية | المؤمن لا يعيش في كون بلا قوانين أخلاقية

الإنسان قد يرى الظالم قوياً مدة طويلة فيظن أن الظلم صار قانوناً.

ويرى الحق ضعيفاً فيظن أن الضعف صار قدراً دائماً.

لكن القرآن يقول:

﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾.

أي إن وراء حركة التاريخ منطقاً أعلى من المشهد العابر.

ليس كل ظالم يسقط أمام عينيك.

وليس كل مؤمن يرى تمام النصر في حياته.

لكن سنن الله أوسع من عمر الفرد.

وهذا يمنع المؤمن من قراءة الكون قراءة قصيرة النفس.

قد تكون أنت في صفحة من قصة تمتد أجيالاً.

فلا تجعل الصفحة التي رأيته تنفي الكتاب كله.

الرسالة الواقعية

تعلم أن تفرق بين السنة والتوقيت.

قد تعرف أن الصدق خير.

لكن ثماره قد نثأخر.
وأن الظلم خراب.
لكن الخراب قد لا يظهر في أول يوم.
وأن التربية الصحيحة تثمر.
لكن الإنسان لا يحصد الشجرة ساعة غرسها.
كثير من اليأس يأتي لأننا نؤمن بالسنة، ثم نفرض عليها جدولنا الزمني.
الإيمان الأرسخ يقول:
أعمل بمقتضى الحق، وأدع توقيت الثمار لله.
ثم قال:
﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

إضاءة لغوية | ﴿تَبْدِيلًا﴾
التبديل هو جعل شيء مكان شيء.
ونفي التبديل هنا يفيد رسوخ السنن الإلهية وثباتها.
أي ليست القيم في الكون معلقة بأهواء البشر.
لا يصير الباطل حقاً لأنه كثر أتباعه.
ولا يصبح الظلم عدلاً لأن القوي شرّعه.
ولا تتحول الخيانة وفاء لأن المجتمع اعتادها.
قد تتغير الأسماء.
لكن حقائق الأشياء عند الله لا تبدل.
وهذه نعمة عقلية وأخلاقية هائلة.
لأنها تمنح الإنسان أرضاً ثابتة في عالم شديد التغير.

اللطيفة التدريبية | إذا تغير العالم كله لا يلزم أن تتغير بوصلتك معه

هناك ضغط دائم على الإنسان ليعيد تعريف الحق وفق الغالب.
إذا شاع شيء قالوا:
صار طبيعياً.
إذا قوي صاحبه قالوا:
صار واقعاً لا بد من قبوله.
لكن القرآن يزرع في النفس فكرة المقاومة الأخلاقية:
الواقع يستطيع أن يفرض عليك ظروفًا.
لكنه لا يملك أن يغير عند الله اسم الظلم.

هذه مساحة الحرية الكبرى للمؤمن.
قد تعجز عن تغيير كل شيء حولك.
لكن لا تسمح لما حولك أن يغير تعريفك للأشياء في داخلك.

الرسالة الواقعية

حين يشيع خطأ حولك، قاوم أخطر أثر له:
أن يصبح مألوفاً في وعيك.
فبعض الانحرافات لا تنتصر حين يفعلها الناس فقط.
بل حين يتوقف الناس عن الشعور بأنها انحراف.
حافظ على أسماء الأشياء.
قل للصدق صدقاً.
وللكذب كذباً.
وللعدل عدلاً.
وللظلم ظلماً.
فوضوح الأسماء أول حصون الوعي.
ثم تأتي الآية الرابعة والعشرون لتكشف صورة مختلفة تماماً من النصر:
﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرُوا عَلَيْهِمْ﴾.
وهنا المفاجأة.
في الآية السابقة قيل:
لو قاتلوكم لهزموا.
لكن الله لم يجعل النصر في وقوع القتال.
بل في منع القتال.
وهذا معنى بالغ العمق في سورة الفتح.
فأحياناً يكون النصر أن تهزم خصمك.
وأحياناً يكون النصر الأعلى أن يملكك الله عليه، ثم لا تقع المعركة أصلاً.
إضاءة لغوية | ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾
الكف هو المنع والحبس.
ولاحظ التوازن:
﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾.
لم يمنع عدوان طرف فقط.

بل منع التصادم كله.
وهذا يعلمنا أن الحفظ الإلهي قد يأتي في صورتين:
أن يحميك من قدرة خصمك.
وأن يحميك كذلك من قدرتك أنت حين يكون استعمالها في تلك اللحظة مفسداً لما هو أكبر.

وهذه الثانية أدق.
فالإنسان يطلب عادة أن يكفه الله عن عدوه.
لكنه يحتاج أحياناً أن يكف يده هو عن فعل كان سيورطه فيما لا يرى عاقبته.

اللطيفة التدبيرية | من رحمة الله أن يمنعك أحياناً وأنت قادر

نحن نفهم الرحمة بسهولة حين يقول الإنسان:
لم أستطع.
لكن هناك رحمة أعمق:
استطعت، ثم لم يُقدّر لك أن تفعل.
رب كلمة كنت قادراً أن تقولها فمنعك الله.
ورب انتقام كانت أدواته في يدك ثم صرفك عنه.
ورب مواجهة كان يمكنك أن تدخلها ثم حال الله بينك وبينها.
وبعد زمن تكتشف أن المنع لم يكن ضعفاً.
كان حفظاً.
فالقدرة ليست دائماً إذناً.
والتمكن ليس دائماً دعوة إلى الاستعمال.

الرسالة الواقعية

حين تملك الرد لا تسأل فقط:
هل أستطيع؟
اسأل:
هل ينبغي؟
وحين تملك القوة لا تسأل فقط:
هل أقدر أن أنتصر الآن؟
اسأل:

ما الذي سيحدث بعد هذا الانتصار؟
هذه نقلة من عقلية رد الفعل إلى الحكمة.

فالإنسان الناضج لا يستعمل كل قوة لمجرد أنه يملكها.
ثم يقول:

﴿مَنْ بَعْدَ أَنْ أَظْفَرَ كُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

إضاءة لغوية | ﴿أَظْفَرَ كُمْ﴾

الظفر هو الفوز والغلبة والتمكن من المطلوب.
أي أن الله مكن المؤمنين من أولئك ثم منع أن يتحول هذا التمكن إلى قتال شامل.
وهنا تظهر دلالة لافته:

الصفح أو الكف حين تعجز شيء، والكف حين تقدر شيء آخر تماماً.
فالامتناع عن البطش عند العجز لا يدل وحده على قوة خلقية.
أما أن تكون قادراً ثم ترى أن المصلحة الشرعية والحكمة تقتضي الكف، فذلك يحتاج إلى سيادة على النفس.

ولهذا كان الحديبية مدرسة في ضبط القوة، لا في ضعف القوة.

اللطفية التدريبية | بعض أعظم الانتصارات هو ألا تستعمل النصر استعمالاً أحق

قد يكسب الإنسان لحظة ويخسر سنوات بسبب نشوة الغلبة.

ينتصر في جدال فيجرح إنساناً لا ينسى جرحه.
يقدر على فضح خصم فيفعل، ثم يفتح باباً من العداوة لا يغلق.
يملك قراراً فيستعمله بأقصى قسوته، لأنه قادر.
لكن القرآن يعلمك أن التمكن اختبار كالعجز تماماً.
وأحياناً يكون اختبار القوة أصعب.

فالعاجز يعرف حدوده.

أما القادر فقد يحتاج أن يقاوم لذة القدرة.

الرسالة الواقعية

إذا وضعتك الحياة في موضع تفوق على من أخطأ في حقك، لا تجعل أول سؤال:
كيف أجعله يشعر بما شعرت؟

اسأل:

ما التصرف الذي يرضي الله ويحقق الخير بأقل قدر من الظلم والفساد؟
العفو ليس واجباً في كل حق، ولا ترك المحاسبة حكمة في كل حال.
لكن المهم أن يكون قرارك محكوماً بالعدل والحكمة، لا بنشوة الانتقام.
ثم يختم الله:

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

إضاءة لغوية | ﴿بَصِيرًا﴾

البصر هنا يتضمن الإحاطة التامة بأعمال العباد وظواهرها وبواطنها. والختام مناسب جداً للسياق. لأن المواقف التي يقع فيها الكف عن القتال أو استعمال القوة يختلط فيها الظاهر بالباطن. قد يمتنع إنسان لأنه خائف. وقد يمتنع آخر لأنه حكيم. الصورة من الخارج واحدة. لكن الله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

يعلم دوافع الكف كما يعلم دوافع الفعل.

اللطفية التدبيرية | ليس كل صمت جبناً، وليس كل مواجهة شجاعة

هذه من الأخطاء الشائعة في حكمنا على الناس وعلى أنفسنا. قد يصرخ إنسان لأن نفسه لا تملك الصبر، ويسمي ذلك شجاعة. وقد يسكت إنسان لأنه يرى مصلحة أعلى، ويسميه الناس ضعفاً. وقد ينعكس الأمر تماماً. الفاصل الحقيقي ليس الصورة وحدها. بل النية والحكمة والميزان الشرعي. ولهذا نحن محتاجون دائماً إلى بصيرة قبل الحكم. فالله وحده يعلم القلب كاملاً.

الرسالة الواقعية

لا تجعل سمعتك عند الناس هي التي تحدد كل استجابة. قد تضطر أحياناً إلى موقف يراه الناس ليناً وهو الحكمة. وقد تحتاج إلى موقف حازم يراه بعضهم قسوة وهو العدل. المهم ألا يكون قرارك عبداً للصورة. اجعله عبداً للحق.

الرسالة الواقعية الجامعة للآيات

هذه الآيات الثلاث تنقلنا إلى درجة جديدة من فهم الفتح.

في أول السورة ظننا أن الفتح هو تحقق النصر.
ثم تعلمنا أن الفتح سكينه.
وأن الفتح هداية.
وأن الفتح ثبات.
وهنا نكتشف أن الفتح قد يكون أيضاً:
معركة لم تقع.
قال:
﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ﴾

فبين ما كان سيحدث لو وقعت المواجهة.
ثم قال:
﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾.
فكشف أن الحكمة كانت في ألا تقع.
وهذا يعيد تعريف القوة كلها.
ليس القوي من يستطيع أن يضرب فقط.
بل من يستطيع أن يضرب، ثم يملك نفسه حين تكون الحكمة في أن يخفض يده.
وليس النصر دائماً أن يسقط خصمك أمامك.
قد يكون النصر أن يحفظ الله منك ومنه دماء لو سُفكت لأغلقت باباً يريد الله أن يفتحه
بعد قليل.

وهنا يبدو صلح الحديبية في ضوء جديد:
المؤمنون لم يكونوا عاجزين كما ظن بعض من نظر إلى ظاهر الشروط.
بل كانوا داخل تدبير أوسع من لحظة المواجهة.
يدُ كُفَّت.
وسيف لم يُرفع.
وشرارة أطفئت.

ثم خرج من ذلك الهدوء فتحٌ غير وجه التاريخ.
وهذه ربما إحدى أعجب رسائل السورة:
ليس كل ما يستطيع الإنسان فعله ينبغي أن يفعله.
وليس كل قتال يمكن كسبه يكون خوضه هو الحكمة.
وقد يكون أعظم نصر يمنحه الله لك يوماً:
أن يمنحك القوة،

ثم يمنحك معها شيئاً أندر من القوة:

الحكمة التي تعرف متى لا تستعملها.

﴿هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيكُم مِّنْهُمْ مَّعْرَةٌ بَغِيرَ عِلْمٍ لِّدَخْلِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۖ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۖ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

نصل هنا إلى موضع يكشف لنا شيئاً لم يكن ظاهراً للمؤمنين ساعة الحديبية.

كان السؤال البشري طبيعياً:

نحن أهل الحق.

وهذا بيت الله.

وقد خرجنا معتمرين لا مقاتلين.

فلماذا تُمنع؟

ولماذا لا يقع الحسم؟

ولماذا نرجع قبل أن نبليغ البيت؟

لكن القرآن يرفع ستاراً لم يكن أحد يستطيع رفعه وحده.

هناك في مكة أناس مؤمنون.

رجال ونساء.

يخفون إيمانهم.

لا يعرفهم جيش المسلمين.

ولو اندلع قتال شامل ودخل المؤمنون مكة بالقوة، ربما أصابوا أولئك المؤمنين وهم لا يعلمون.

إذا بالمنع الذي بدا في ظاهره حرماناً من الدخول يكون في باطنه حفظاً لأرواح لا تعرف أنها سبب من أسباب تأخير الفتح.

وهنا تأخذنا سورة الفتح إلى مستوى جديد من الثقة بالله:

ربما مُنع عنك شيء لا لأنك لا تستحقه، بل لأن في الطريق إليه مصلحة أو نفساً أو قدراً آخر لا تراه.

إضاءة لغوية | ﴿صَدُّوكُمْ﴾

الصد هو المنع والصرف عن الطريق.

وقريش لم تكتفِ بعدم السماح للمؤمنين بالدخول، بل صدتهم:
﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

والتعبير مؤلم؛ لأن المنوع عنه ليس مكاناً عادياً.
إنه المسجد الحرام.

ومع ذلك فإن القرآن، مع إدانته للصد، لا يجعل رد الفعل على الظلم آلياً.
فهناك ظلم وقع.

لكن طريقة رفع الظلم نفسها تدخل تحت ميزان الحكمة.
وهذه دقة قرآنية مهمة:

كونك مظلوماً لا يجعل كل رد تملكه صحيحاً.

قد يكون لك الحق، ولكن اختيار توقيت أخذه وطريقته يحتاج إلى علم بما وراء المشهد.

اللطيفة التدرجية | قد تكون على حق، ومع ذلك يأمرك الله بالصبر

نحن أحياناً نربط الحق بالعجلة.

نقول:

ما دمت محقاً، فلماذا لا أحسم الآن؟

لكن الحديبية تعلمنا أن المؤمن قد يكون محقاً تماماً، ثم تكون الحكمة أن ينتظر.
لا لأن الحق ضعيف.

ولا لأن الباطل أصبح مشروعاً.

بل لأن ميزان الله يرى أكثر من زاوية واحدة.

أنت ترى حَقَّك.

والله يرى حَقَّك وحقوقاً أخرى لا تراها.

أنت ترى جبهة المواجهة.

والله يرى داخلها أرواحاً مؤمنة مستضعفة.

أنت تريد الوصول.

والله يعلم ماذا سيصيب غيرك لو وصلت بالطريقة التي تريدها.

وهنا يصبح الصبر أحياناً شكلاً من أشكال العدل مع المجهول.

الرسالة الواقعية

حين تكون لك مطالبة عادلة، لا تسأل فقط:

هل هذا حقّي؟

اسأل أيضاً:

ما آثار الطريقة التي سأسترد بها حقي؟

هل سأظلم طرفاً ثالثاً؟

هل سأؤذي بريئاً؟

هل سأهدم شيئاً أكبر مما أصلحه؟

فالحق لا يحتاج إلى ظلم جديد كي ينتصر.

وكلما كبرت قدرتك على الفعل، كبرت مسؤوليتك عن الآثار الجانبية لفعلك.

ثم يقول:

﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾.

إضاءة لغوية | ﴿مَعْكُوفًا﴾

العكوف هو اللزوم والحبس على الشيء..

فالهدي الذي ساقه المسلمون معهم للنسك حُبس ومنع أن يبلغ موضعه.

والصورة مؤثرة:

عبادة مهيأة.

ونسك أعدد.

ونفوس خرجت طائعة.

ثم يتوقف كل شيء قبل بلوغ الغاية.

وهذا من أصعب أنواع الابتلاء:

أن تكون نيتك في الطاعة صادقة، ومع ذلك لا تتم لك الصورة التي أردتها.

لكن القرآن يعلن أن قبول العمل لا يتوقف دائماً على بلوغ الصورة التي خططنا لها.

قد يمنعك العذر.

وقد يتدخل القدر.

ويبقى عند الله صدق النية والسير.

اللطفية التدريبية | ليست كل طاعة صادقة تُستكمل بالصورة التي تمنيناها

قد تنوي خيراً ولا تتمكن.

تبدأ مشروعاً نافعاً فيتوقف.

تسعى في إصلاح فتتعطل أسبابه.

تهيأ لعبادة ثم يعرض عذر.

وهنا قد يحزن الإنسان لأنه لم يصل.

لكن الله يعلم أن قلبه كان في الطريق.

وهذا يمنحنا راحة عظيمة:

لا تجعل قيمة سعيك كلها معلقة بالنتيجة.

فالطريق إلى الله ليس شركة تجارية لا تسجل إلا المشروع المكتمل.

الله يعلم النية.

ويعلم العذر.

ويعلم ما بذلت.

الرسالة الواقعية

إذا تعطل لك خير رغم صدقك، فلا تسمح للإحباط أن يحو قيمة المحاولة.
اسأل:

هل صدقت؟

هل بذلت ما أستطيع؟

هل قصرت فيما كان بيدي؟

إن فعلت ما عليك، ثم وقع ما ليس في قدرتك، فلا تحمل نفسك وزر القدر.

ثم تأتني واحدة من أعجب الجمل في السورة:

﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَهُمُ﴾.

إضاءة لغوية | ﴿لَمْ تَعْلَهُمُ﴾

هذه الكلمة وحدها تفتح باباً عظيماً في معرفة الإنسان بحدود نفسه.

لم تعلموهم.

أي إن في المشهد عناصر حاسمة لم تكن موجودة في حساباتكم أصلاً.

وهذا هو جذر كثير من أخطاء الحكم البشري:

أن الإنسان لا يبني قراره فقط على معلومات ناقصة، بل قد لا يعرف أصلاً أن هناك معلومات مفقودة.

نحن لا نعرف ما نجهله كله.

وهذه حقيقة تستدعي تواضعاً هائلاً.

اللطيفة التدبيرية | في كل قدر مساحة اسمها: ما لم تعلموه

كم مرة تصورت أنك فهمت الصورة كاملة؟

ثم ظهر شخص لم تكن تعرفه.

أو سبب خفي.

أو معلومة غابت.

أو مآل لم يخطر.

الحديبة تقول لك:

ضع دائماً في حسابك خانة فارغة عنوانها:

﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾.

هذه الخانة وحدها كافية لتكسر غرور العقل.

أنت قد تعرف كثيراً.

لكن لا تعرف كل شيء.

وقد يكون الشيء الذي لا تعرفه هو بالذات ما يفسر لماذا لم يحدث ما كنت تريده.

الرسالة الواقعية

إذا تعذر عليك تفسير موقف كامل، لا تُجبر نفسك على تفسير قاطع.

قل:

لدي معلومات.

لكن ربما توجد معلومات لم تبلغني.

هذا ليس ضعفاً عقلياً.

بل نضج معرفي.

واليقين لا يعني أن تعرف كل تفاصيل القدر.

بل أن تعرف أن الله يعلم ما لا تعلم.

ثم يقول:

﴿أَنْ تَطَّوُّهُمْ فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

إضاءة لغوية | ﴿مَعَرَّةٌ﴾

المعرة هي ما يلحق الإنسان من مكروه أو عيب أو تبعة.

أي لولا وجود هؤلاء المؤمنين المستضعفين الذين لا تعرفونهم، لربما وقع منكم عليهم أذى بغير علم، فيلحقكم بسبب ذلك ما يكره.

وهنا يظهر أن الجهل لا يلغي آثار الفعل.

قد تؤذي إنساناً دون أن تقصد.

لكن الأثر يقع.

ولذلك من الحكمة أن يحبك الله أحياناً من فعل لم تكن تعلم أنه سيؤدي إلى نتائج مؤذية.

اللطيفة التدبيرية | قد يمنعك الله حماية لك من خطأ كنت ستفعله بحسن نية

وهذه من ألطف المعاني.

ليس كل خطأ يأتي من سوء نية.
قد تكون نيتك صحيحة، لكن معلوماتك ناقصة.
وقد تفعل شيئاً بحماس للحق، ثم تكتشف أنه أصاب بريئاً.
لذلك فالحكمة ليست فقط صلاح النية.
بل تحتاج أيضاً إلى علم وبصيرة وتقدير للمآلات.
ولهذا كانت الحديبية مدرسة في شيء بالغ النضج:
ليس الإخلاص وحده كافياً لتبرير كل تصرف.
لا بد مع الإخلاص من هدى.

الرسالة الواقعية

قبل قرار كبير، لا تسأل فقط:
هل نيتي طيبة؟
اسأل كذلك:
هل معلوماتي كافية؟
من قد يتضرر؟
ما الذي قد لا أراه؟
فالنية الصالحة عظيمة، لكنها لا تجعل الخطأ صواباً تلقائياً.
ثم يقول سبحانه:
﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾.
وهنا يرتفع المعنى فوق الحساب العسكري كله.
هناك أناس سيدخلهم الله في رحمته.
ربما من المؤمنين المستضعفين.
وربما ممن سيؤمن لاحقاً من أهل مكة.
فلو وقع القتال يومئذ، ربما أغلقت على بعضهم أبواب هداية كانت ستفتح بعد قليل.
وهذا يجعل تأخير المواجهة نفسه مساحة للرحمة.

اللطيفة التدبيرية | قد يؤخر الله الحسم لأن باب الهداية ما زال مفتوحاً

الإنسان يحب النهايات السريعة:
هذا معنا.
وهذا ضدنا.
هذا ينتهي.

وهذا يبقى.

لكن رحمة الله أوسع من استعجالنا.

رب خصم اليوم يصبح أخاً غداً.

ورب قلب قاسٍ يحتاج إلى موقف واحد ليتغير.

ورب إنسان كان بعيداً عن الإيمان، ثم يدخل فيه بعد سنوات.

لو حسمت القصة وفق رغبة الإنسان في لحظة الغضب، لانتهد قبل أن تصل الرحمة إلى بعض القلوب.

وهذا من أعظم دروس الحديبية:

لا تجعل حال الناس اليوم هو حكمك النهائي على ما يمكن أن يكونوا غداً.

الرسالة الواقعية

في علاقاتك، اترك مساحة للتغير.

حاسب الخطأ.

واحفظ الحدود.

لكن لا تتعامل مع كل إنسان كأنه محكوم عليه إلى الأبد بالصورة التي رأيته منه اليوم.

الناس قد يتغيرون.

والهداية قد تأتي من مكان لا تتوقعه.

ثم قال:

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

إضاءة لغوية | ﴿تَزَيَّلُوا﴾

التزَيَّل هو التفرق والتميز والانفصال.

أي لو تميز المؤمنون المستضعفون عن الكافرين وانفصلوا عنهم، لزال المانع الذي من أجله لم

يقع العذاب على الكافرين في ذلك الموطن.

وهذه كلمة صغيرة تكشف سبباً كاملاً وراء تأخير الحسم:

اختلاط من يستحق الحماية بمن يستحق العقوبة.

والله لا يضيع أوليائه في طريق الانتقام من أعدائه.

اللطيفة التدبيرية | عدل الله لا يرى الجماهير كتلة واحدة

البشر يحبون التصنيفات الواسعة.

مدينة كاملة.

قبيلة كاملة.

جماعة كاملة.

لكن الله يعلم الأفراد داخل الجموع.
يعرف قلباً مؤمناً في وسط بيئة كافرة.
ويعرف صادقاً في وسط مجتمع فاسد.
ويعرف مظلوماً في مكان يتهمة الناس بالجملة.
وهذا معنى عظيم في عدل الله:
لا تضيع الفردية الأخلاقية داخل الجماعة.

الرسالة الواقعية

احذر الأحكام الجماعية الجائرة.

لا تقل:

هؤلاء كلهم كذا.

أو أهل المكان كلهم كذا.

أو هذه الفئة كلها كذا.

فقد يكون داخل الصورة التي تعمم عليها إنسان لا يشبهها أصلاً.
والقرآن علّنا هنا أن رجالاً ونساءً مؤمنين كانوا في وسط مكة، ولم يعرفهم المسلمون أنفسهم.

ثم تنتقل الآية التالية إلى أصل المرض في الجهة الأخرى:
﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

إضاعة لغوية | ﴿الْحَمِيَّةُ﴾

الحمية من مادة ح م ي التي تدور حول الحرارة والاشتعال والمنع والدفاع.
فالحمية هي الأنفة المتوقدة التي تدفع الإنسان إلى الانتصار لشيء لمجرد أنه «له» أو «منه» أو «من قومه».

ولهذا وصفها الله:

﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

أي ليست حمية للحق.

بل حمية للهوية والأنفة والعصبية والكبرياء.

وقرئ منعت النبي ﷺ وأصحابه من البيت الحرام، لا لأنهم يجهلون حرمة، بل لأن الاعتراف بدخولهم في تلك اللحظة كان في نظرهم كسراً لكبريائهم.

وهنا يصبح الكبر أقوى من المبدأ.

قد يعرف الإنسان الصواب.
لكنه يرفضه لأن قبوله سيبدو هزيمة شخصية.
وهذا من أخطر أمراض النفس.
يكون النقاش قد انتهى.
والحجة ظهرت.
لكن شيئاً في الداخل يقول:
لن أرجع.
ليس لأنك لم تفهم.
بل لأنك لا تريد أن «تنهزم» أمام الآخر.
وهنا يصبح الانتصار للنفس أغلى من الانتصار للحق.
وهذه هي الحمية.
أن ترتفع حرارة الذات حتى تحجب نور الحقيقة.

الرسالة الواقعية

حين تختلف مع أحد، راقب هذه اللحظة:
هل ما زلت تبحث عن الحق؟
أم أصبحت تبحث عن طريقة لا تخرج بها مهزوماً؟
إذا ظهر لك الصواب على لسان من لا تحب، فقبوله عبادة عظيمة للنفس قبل أن يكون موقفاً فكرياً.
فأقسي انتصار على الجاهلية في داخلنا هو أن نقول:
كنت مخطئاً.
وفي مقابل الحمية يأتي مباشرة:
﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.
يا لهذا التقابل العجيب.
هناك:
حمية.
وهنا:
سكينة.
هناك نار تشتعل في القلب.

وهنا طمأنينة تنزل عليه.

وهذه واحدة من أجمل الثنائيات في السورة.

إضاءة لغوية | الحمية والسكينة

الحمية تصعد من داخل النفس.

تشتعل.

تتوتر.

تريد رداً سريعاً.

أما السكينة:

﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً﴾.

تنزل من عند الله.

فالحمية حرارة.

والسكينة ثبات.

الحمية تقول:

لا تتنازل ولو ضاع كل شيء..

والسكينة تقول:

تمسك بالحق، ودع عنك كرامة النفس الزائفة.

ولهذا كان المؤمنون في الحديبية أمام استفزاز شديد.

ومع ذلك لم تسمح لهم السكينة أن تتحول كرامتهم الدينية إلى انفعال أعمى.

اللطيفة التدريجية | علامة القوة ليست أن تشتعل، بل أن لا تشتعل حين يريدك الهوى أن
تشتعل

الإنسان الضعيف داخلياً قد يظن أن سرعة الغضب قوة.

لكن السورة تعيد تعريف القوة.

قريش امتلأت حمية.

والمؤمنون نزلت عليهم السكينة.

أي الطرفين كان أقوى؟

المشهد النهائي أجاب.

القوي حقاً هو من يستطيع أن يحتفظ بعقله ومبدئه تحت ضغط الاستفزاز.

فالحمية تجعلك أسير خصمك؛ يكفي أن يستفرك ليحدد تصرفك.

أما السكينة فتحررك منه.

الرسالة الواقعية

إذا استفزك أحد، لا تجعل أول انتصار له أن يتحكم في إيقاعك.
كلما دفعك الغضب إلى رد فوري، أعط نفسك مساحة.
ليس كل تأخر في الرد ضعفاً.
قد يكون استعادة لسيادتك على نفسك.

ثم يقول:

﴿وَالْزَمُّهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾.

إضاءة لغوية | ﴿الْزَمُّهُمْ﴾

الإلزام هو جعل الشيء ملازماً لا يفارق.
وكلمة التقوى فسرت عند السلف بكلمة التوحيد وما يتصل بها من حقيقة الإيمان والطاعة.
والجليل في اللفظ أن التقوى هنا ليست فكرة مرّت بالقلب.
بل شيء ألزمهم الله إياه.
فثبتوا عندها حين كان الانفعال يدعوهم إلى تجاوزها.
وهذا معنى تربيوي دقيق:
التقوى الحقيقية هي ما يبقى ملازماً لك تحت الضغط.

اللطفية التدبيرية | القيم التي تسقط عند الغضب لم تترسخ بعد

قد يكون الإنسان مهذباً ما دام مرتاحاً.
وعادلاً ما دام غير متضرر.
وصادقاً ما دام الصدق لا يكلفه.
لكن ماذا يبقى من قيمك حين تُستفز؟

هنا معنى:

﴿وَالْزَمُّهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾.

أي إن التقوى بقيت مسكة بهم في اللحظة التي كاد الانفعال أن يسحبهم خارج ميزانها.
وهذا هو الرسوخ.

الرسالة الواقعية

لا تقيس أخلاقك في لحظات الهدوء فقط.
اختبرها عند الغضب.
والخلاف.

والخسارة.

والقدرة على الانتقام.

فالفضيلة في الظروف المريحة جميلة.

لكن فضيلة الضغط هي التي تكشف عمق البناء.

ثم تأتي شهادة قرآنية عظيمة:

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾.

ما أجمل كلمة:

أهلها.

كأن التقوى صارت بيتاً وهم أهلها.

أو صارت صفة لها ناس يليقون بها.

وهؤلاء كانوا أهلها لأن صدقهم السابق جعلهم جديرين بالثبات عندها.

وهذه منزلة لا تصنعها الشعارات، بل العمر المتراكم في الإيمان.

اللطيفة التدبيرية | هناك قيم حتى تصبح من أهلها

الصدق في البداية قرار.

ثم يتكرر.

حتى تصبح من أهل الصدق.

والصبر قرار.

ثم يصبح طبعاً متريباً.

والتقوى اختيار يومي.

ثم تصير لك بها أهلية.

وهذا يعني أن الشخصيات لا تُبنى بالقفزات فقط.

بل بتكرار الاختيار الصحيح حتى يصبح للفضيلة بيت فيك.

الرسالة الواقعية

اسأل نفسك:

أي قيمة أريد أن أكون من «أهلها»؟

الصدق؟

الوفاء؟

الرحمة؟

الشجاعة؟

العدل؟

ثم اعلم أن الأهلية لا تُكتسب بالتّمي.
بل بالمواقف المتكررة.

ثم تأتي الآية السابعة والعشرون، لتعيدنا إلى أصل القصة:
﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾.

كان النبي ﷺ قد رأى أنه يدخل المسجد الحرام مع أصحابه.
نفرجوا وهم يرجون تحقق الرؤيا.
ثم جاءت الحديبية.

ورجعوا دون دخول.
وهنا يمكن للنظر القاصر أن يسأل:
أين تحقق الوعد؟

لكن المشكلة لم تكن في صدق الرؤيا.
بل في افتراض البشر موعداً لم يحدده الوعد.
وهذه واحدة من أعظم لطائف السورة.
إضاءة لغوية | ﴿صَدَقَ﴾

الصدق هو مطابقة الخبر للواقع.
وقوله:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾

تأكيد على أن الرؤيا حق، وأن مضمونها سيقع.
لكن الرؤيا لم تقبل بالضرورة:

ستدخلون في هذه الرحلة نفسها.
وهنا يظهر كيف يمكن للإنسان أن يؤمن بالوعد، ثم يضيف من عنده تفاصيل زمنية ليست
في الوعد، ثم يضطرب حين لا تقع تلك التفاصيل.

اللطفية التدبرية | أحياناً لا يخطئ الوعد، بل يخطئ توقيتنا له

هذه من أدق مشكلات القلب مع الدعاء والوعد.
يقول الإنسان:

دعوت ولم يحدث.

وقد يكون المعنى الحقيقي:

لم يحدث في الوقت الذي حددته أنا.
ويرجو أمراً صالحاً.

ثم يتخيل طريقاً معيناً إليه.
 فإذا لم يقع بالطريق نفسه قال:
 أين الفرج؟
 مع أن الله ربما يقوده إلى الفرج من طريق آخر.
 الحديبية تعلمنا:
 لا تضيف إلى وعد الله تفاصيل لم يعدك بها.
 ثق بالوعد.
 وارك الله كيف ومتى.

الرسالة الواقعية

حين تدعو بشيء، فرق بين أمرين:
 ما طلبته من الله.
 والسيناريو الذي رسمته أنت للإجابة.
 قد يتحقق الأول بطريقة تهدم الثاني تماماً.
 فلا تجعل السيناريو الشخصي هو المعيار الذي تقيس به صدق الرجاء.
 ثم يأتي الوعد الجازم:
 ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ﴾.
 إضاءة لغوية | ﴿لَتَدْخُلَنَّ﴾
 هذه صيغة مؤكدة باللام ونون التوكيد الثقيلة.
 أي دخول متحقق بوعد الله.
 لكن انظر إلى الصورة:
 ﴿آمَنِينَ﴾.
 ليس دخولاً وسط حرب عمية.
 ولا دخولاً يختلط فيه المؤمن بالمستضعف.
 بل دخول آمن.
 وهنا تدرك حكمة التأخير.
 الإنسان كان يريد «الدخول».
 والله أراد له الدخول الآمن.
 وكم من فرق بين أن يعطيك الله الشيء، وأن يعطيك إياه في حالته الأصلح لك.
 اللطيفة التدرية | قد يؤخر الله النعمة ليعطيك إياها بصورة أجمل

أنت تقول:
أريد هذا.
والله يعلم أنك تحتاج معه إلى أمان.
ونضج.
وظرف مناسب.
واستقرار.

فقد لا يكون التأخير حرماناً من الشيء.
بل إعداداً لنسخته الأرحم.
وهذا معنى يغير كثيراً من نظرتنا للانتظار.

الرسالة الواقعية

لا تطلب فقط الوصول.
اطلب الوصول الذي يحفظ دينك وقلبك وكرامتك.
فليست كل نتيجة سريعة خيراً.
أحياناً يكون التأخير تحسیناً لشروط الوصول.
ثم يرسم القرآن المشهد:
﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾.
إنه ليس وعداً عاماً مبهماً.
بل صورة كاملة.
دخلتم.
وأديتم النسك.
وحلقتم أو قصرتم.
والخوف الذي كان يحيط بالحكاية اختفى:
﴿لَا تَخَافُونَ﴾.

ما كان في الحديبية انتظاراً سيصبح بعد حين ذكرى.
وهذا من أجمل ما يفعله الوعد بالقلب:
يمنحه قدرة على النظر إلى الألم الحالى من موضع النهاية.

اللطيفة التدريية | كل خوف له زمن، وليس كل خوف قدراً دائماً

حين يعيش الإنسان داخل الخوف يظنه العالم كله.
لكن القرآن يقول لهم:

سيأتي يوم تدخلون فيه:
﴿لَا تَخَافُون﴾.

الخوف الذي كان يملأ اللحظة لن يظل خالداً.
وهذه رسالة لكل مبتلي:
لا تفترض أن شعورك الحالي هو الصورة النهائية لحياتك.
الأيام تتغير.
والأحوال تتبدل.
والله يفتح.

الرسالة الواقعية

حين تكون في مرحلة خوف، لا تتخذ قراراتك وكأن الخوف أبدي.
ضع في ذهنك احتمال أن تأتي أيام تنظر فيها إلى هذا الزمن من مسافة بعيدة.
هذا لا يلغي الحذر.
لكنه يمنع الخوف من احتلال المستقبل كله.
ثم تأتي الجملة التي تلخص الحديبية كلها:
﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾.

يا لها من جملة.
كل ما سبق يمكن أن يطوى فيها.
أنتم رأيتم منعاً.
وهو علم مؤمنين مستضعفين.
رأيتم تأخيراً.
وهو علم فتحاً قريباً.
رأيتم شروطاً ثقيلة.
وهو علم انتشاراً للدعوة.
رأيتم رجوعاً.
وهو علم دخولاً آمناً قادماً.
أنتم عرفتم شيئاً.
والله علم ما لم تعلموا.
إضاءة لغوية | ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾
الجملة تقيم فارقاً معرفياً مطلقاً بين الخالق والمخلوق.

علم الله كامل.
وعلم الإنسان محدود.
والمشكلة تبدأ حين يتصرف الإنسان وكأن نقص علمه غير موجود.
فالتسليم ليس تعطيلاً للعقل.
بل اعتراف العقل بحدوده.
والعقل الرشيد يقول:
أنا أحلل ما أراه.
لكنني لا أملك أن أجعل ما أراه كل الحقيقة.

اللطيفة التدريبية | في كل تأخير إلهي احتمال لمعرفة ليست عندك

ليس من الأدب مع الله أن نزعّم أن كل تأخير نعرف حكمته.
قد لا نعرف.

وقد لا نعرف أبداً في الدنيا.
لكن يكفي أن نعرف هذه الجملة:
﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾.

قد لا تستطيع تفسير القدر.
لكن تستطيع أن تضع جهلك تحت علم الله.
وهذه إحدى أصفى صور التسليم.
ليس أن تقول:
لقد فهمت كل شيء.

بل أن تقول:
لم أفهم، لكنني أعلم أن الله لم يحهل ما جهلت.

الرسالة الواقعية

حين تصل إلى حدٍّ لا تجد بعده تفسيراً، لا تخترع حكمة من عندك.
يكفى أحياناً أن تقول:
الله أعلم.

لا باعتبارها عبارة لإنهاء التفكير.
بل باعتبارها حقيقة تحفظ القلب من الغرور واليأس معاً.
ثم قال:

﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

أي قبل تحقق الدخول الذي وعدوا به، جعل الله فتحاً قريباً.
فتأخر أمر.

لكن جاء قبله خير آخر.

وهذا من غرائب التدبير الإلهي:

قد تطلب باباً بعينه.

فيؤخره الله.

ثم يفتح لك في الطريق إليه باباً لم تطلبه أصلاً.

اللطيفة التدريبية | بينك وبين الوعد قد يضع الله فتحاً لم يكن في حسابك

الإنسان يرى الطريق خطأ مستقيماً:

دعاء → إجابة.

رغبة → تحقق.

لكن الله قد يجعل الطريق:

دعاء → تأخير → تربة → فتح جانبي → معرفة → ثم تحقق الوعد.

فتظن أن المسار طال.

ثم تكتشف أن كل محطة فيه كانت تعطيك شيئاً.

وهنا يتبدل معنى الانتظار.

ليس فراغاً بينك وبين الإجابة.

قد يكون سلسلة فتوحات صغيرة تقودك إلى الفتح الذي تنتظره.

الرسالة الواقعية الجامعة للآيات

هذه الآيات الثلاث ربما تكون من أعمق مواضع السورة في تفسير لماذا يتأخر الفتح.

قد يتأخر لأن في الطريق أرباء لا تراهم:

﴿رَجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَلِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾.

وقد يتأخر لأن رحمة الله تريد أن تبلغ قلوباً لم تصل إليها بعد:

﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

وقد يتأخر لأن الله يريد أن يربي فيك السكينة بدل الحمية:

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾.

وقد يتأخر لأن الوعد صحيح لكنك أخطأت في توقيته:

﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾.

وقد يتأخر لأن الله لا يريد مجرد أن تصل، بل أن تصل:
﴿آمِنِينَ... لَا تَخَافُونَ﴾.

ثم تأتي العبارة التي ينبغي أن تبقى مع المؤمن في كل طريق لا يفهمه:
﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾.

وهنا تصل سورة الفتح إلى درس بالغ الرقة والعظمة:
قد تقف أمام باب وتقول:

يا رب، لماذا لم تفتحه؟

ويكون وراء الباب من التعقيد والرحمة والمصالح والمآلات ما لو رأيته لقلت:

يا رب، الحمد لك أنك لم تفتحه يوم أردت أنا.

فليس كل تأخير ضدك.

أحياناً يكون التأخير هو الطريقة التي يحجي الله بها أنت، والآخرين، والوعد نفسه حتى يأتي في وقته الأجمل.

وما بين الوعد وتحقيقه، لا يترك الله فارغ اليدين.

بل قد يجعل لك:

﴿مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۚ
يُذَكِّرُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا
مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلُهُمْ فِي
الْإِنْجِيلِ كَرَّرَ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوِّفِهِ يَعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيْظَ بِهِمُ
الْكَفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

ها نحن نصل إلى خاتمة السورة.

وقد بدأت سورة الفتح بقول الله:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾

وتختتم الآن بإعلان الغاية الكبرى من الرسالة:

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.

كأن السورة بدأت بالفتح قبل أن يراه الناس، ثم أخذت بأيدينا خلال الطريق كله لتقول لنا في النهاية:

إن ما رأيتوه في الحديبية لم يكن حادثة منفصلة.

كان خطوة في قصة أكبر.
القصة ليست فقط أن يدخل المسلمون مكة.
بل أن يظهر دين الحق.
ولهذا يتسع الأفق في آخر السورة من مكان محدود في الجزيرة إلى رسالة لها شأنها في العالم.
لكن الأعبأ أن السورة لا تحتم بصورة الدولة أو الجيش أو الغنينة.
تحتم بصورة الإنسان المؤمن.
محمد ﷺ.

والذين معه.
كيف يعاملون خصومهم.
كيف يرحم بعضهم بعضاً.
كيف يصلون.
ماذا يريدون من الله.
وكيف يغنون كرر ع يشق الأرض ثم يقوى.
وكأن القرآن يريد أن يقول:
إن الفتح الحقيقي لا يُقاس فقط بالأرض التي يدخلها الدين، بل بالإنسان الذي يصنعه الدين.

إضاءة لغوية | «بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ»
الهُدَى من الهداية، وهي الدلالة والإرشاد إلى الطريق الموصل إلى الغاية.
أما دين الحق فالحق هو الثابت الذي لا يزول ولا يتناقض مع الواقع.
فجمع الله للرسول ﷺ شئئين:

الهدى: ما يهدي العقل والقلب إلى الطريق.
ودين الحق: المنهج الذي تقوم عليه الحياة بعد معرفة الطريق.
فالرسالة ليست معلومات روحية مجردة.
ولست منظومة اجتماعية بلا نور.
إنها:

هداية للرؤية.
ودين للحياة.
نور تعرف به.
ومنهاج تسير عليه.
وهذه الثنائية بالغة الأهمية؛ لأن الإنسان قد يعرف الطريق ولا يسلكه.
وقد يسلك نظاماً بلا بصيرة.

أما الوحي فيجمع:
وضوح البصيرة، واستقامة المسار.

اللطفية التدبيرية | أكبر ضلال أن تملك الحركة وتفقد الاتجاه

قد يكون الإنسان نشيطاً جداً.

يعمل.

يخطط.

ينجز.

يتحرك.

لكن السؤال القرآني ليس فقط:

كم قطعت؟

بل:

إلى أين تسير؟

ولهذا جاءت الهداية قبل الحديث عن ظهور الدين.

فليس المطلوب مجرد قوة تتحرك.

بل قوة تعرف الطريق.

والإنسان حين يفقد الهداية قد يستخدم مواهبه نفسها ضد نفسه.

ذكاؤه يزيد ضلاله.

وقوته توسع ضرره.

وعلمه يمنحه أدوات أكثر لخدمة هوى غير مهتد.

ولهذا كانت نعمة الهداية أسبق من كثير من النعم.

الرسالة الواقعية

قبل أن تسأل في أي مشروع:

كيف أنجح؟

اسأل:

هل الاتجاه نفسه صحيح؟

فالسرعة في الطريق الخطأ لا تقربك من الغاية.

بل تبعدك أسرع.

واجعل لك مراجعة دائمة:

هل ما أفعله يقربني من الله؟

هل ينسجم مع الحق؟

هل سأرضى عن هذا الطريق إذا نظرت إليه من نهايته؟
ثم يقول تعالى:
﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.

إضاءة لغوية | ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾

الظهور في العربية يجمع معاني العلو والبيان والغلبة.
فالشيء الظاهر هو البين الذي لا يخفى، ومن الظهور كذلك العلو والغلبة.
ومن هنا يحمل التعبير معنى ظهور دين الحق بالحجة والبيان، وما يقدره الله له من الغلبة والنصر.

واللافت أن هذا الإعلان يأتي في سورة نزلت في سياق صلح.
لا في لحظة اجتياح.
وهذا وحده درس عظيم.

فالظهور قد يبدأ في لحظة يراها الناس تنازلاً.
لأن الله يرى مساراً أطول من عدسة اللحظة.

اللطيفة التدبيرية | المشروع العظيم قد يبدأ بخطوة لا تشبه نهايته

من أخطاء الإنسان أنه يريد من البدايات أن تبدو مثل النهايات.
إذا كان الطريق سينتهي بقوة، يريد أن يبدأ بالقوة.
إذا كان سينتهي بانتشار، يريد أن يبدأ بالانتشار.
لكن البذرة لا تشبه الشجرة.
والحديدية في ظاهرها لم تكن تشبه:
﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.

لكنها كانت جزءاً من الطريق إليه.
وهكذا تعمل كثير من السنن.
البدايات تكون صغيرة.
والنتائج كبيرة.

وبينهما زمن لا يستطيع المستعجل احتماله.

الرسالة الواقعية

لا تحتقر البدايات المتواضعة.
كأن يبدأ بصفحة.
وعلم يبدأ بمسألة.

وإصلاح يبدأ بشخص.

وعادة صالحة تبدأ بخمس دقائق.

المهم أن تكون البذرة صحيحة.

ثم أعطها حقها من الزمن والعمل.

ثم يقول:

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وهذه العبارة تأتي بعد وعد هائل بظهور الدين.

وكان السؤال المتوقع:

ومن يشهد بأن هذا الوعد حق؟

الجواب:

الله.

إضاءة لغوية | ﴿كَفَى﴾

الكفاية هي بلوغ الشيء مقداراً يغني عما سواه.

فحين يقول:

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾

فالمعنى أن شهادة الله وحدها كافية.

والشهادة هنا تعيدنا إلى معنى مر بنا في السورة:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾.

فالرسول شاهد بالرسالة وعلى الأمة.

والله شهيد على صدق رسوله، وصدق وعده، وما يجري في الطريق كله.

اللطيفة التدريبية | بعض الطرق لا يصدقك فيها الناس في البداية، ويكفيك أن يعلم الله

صدقك

هناك مراحل يكون فيها البرهان الكامل على مشروعك أو موقفك لم يظهر بعد.

وقد يسخر الناس.

أو يسيئون الفهم.

أو يحكمون بالظاهر.

ولا يعني هذا أن تستغني عن المراجعة والنقد، أو تنوهم أنك دائماً محق.

لكن إذا تحققت من الحق وبذلت وسعك في الاستقامة، فهناك راحة عظيمة في أن تعرف:

ليس مطلوباً أن يفهمني كل الناس الآن.
يكفي أن أكون صادقاً عند الله.

الرسالة الواقعية

لا تحول حياتك إلى محكمة دائمة تطلب فيها شهادة الجميع لصالحك.
راجع نفسك بصدق.
واستمع للنقد.
وأصلح خطأك.
لكن بعد ذلك لا تجعل قبول الناس شرطاً لطمأنيتك.
فمن عاش يطلب التصديق من كل أحد عاش أسيراً لكل أحد.
ثم تأتي الجملة التي لا تحتاج اسماً غير الاسم الذي حملته السورة كلها نحوه:
﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾.

ما أشد بساطتها.
وما أعظم وزنها.
اسم.
ثم حقيقة الرسالة.
ليس ملكاً.
ولا زعيم قبيلة.
ولا صاحب مشروع شخصي.
رسول الله.
وهذه هي الحقيقة التي تفسر كل ما سبق.
لماذا يُطاع؟
لأنه رسول الله.
لماذا تُعظم سنته؟
لأنه رسول الله.
لماذا كانت البيعة له بيعة في طاعة الله؟
لأنه رسول الله.
لماذا يثق المؤمنون بوعده؟
لأنه رسول الله.

اللطيفة التدريية | حين تعرف مقام الرسول تعرف كيف تستقبل كلامه

المشكلة ليست دائماً في عدم معرفة الحكم.
بل في موقع النبي ﷺ داخل القلب.
إذا كان مجرد شخصية تاريخية عظيمة، أصبح قوله مادة قابلة للإعجاب والانتفاء.
أما إذا استقر:
﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾

فإن العلاقة تتغير.
هنا لا يعود السؤال الأول:
هل يعجبني قوله؟
بل:

ماذا يقتضي مني إيماني برسالته؟
وهذا هو الفارق بين الإعجاب والاتباع.

الرسالة الواقعية

اجعل هذه الجملة معياراً لعلاقتك بالسنة:
محمد رسول الله.
فإذا صح حديث عنه ﷺ، فاستقبله بهذا المقام.
افهمه في سياقه.
واجمع نصوص الباب.
وارجع إلى أهل العلم.
لكن لا تجعل هواك هو الذي يمنح السنة حق الدخول إلى حياتك أو يمنعها.
ثم يأتي وصف الجيل الذي تربى على يديه:
﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾.

ولم يقل فقط:
الذين آمنوا به.

بل:

معه.

والمعية هنا تحمل معنى الصحبة والنصرة والسير في الطريق.
وهؤلاء سيصفهم القرآن الآن بأربع صور متتابعة:
قوة في موضعها.
رحمة في موضعها.

عبادة في سرائرهم.

وغو متدرج حتى يصبحوا كزبرج قوي قائم على سوقه.
إضاءة لغوية | ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾

الشدة هي القوة والصلابة.

والرحمة رقة تقتضي الإحسان بالمرحوم.

والآية تجمعهما في شخصية واحدة.

وهذا من التوازن القرآني البديع.

لم يقل:

أشداء دائماً.

ولا:

رحماء بلا تمييز في كل موقف.

بل لكل خلق موضعه.

صلابة أمام العدوان والباطل.

ورحمة في جماعة المؤمنين.

فالشخصية الإيمانية ليست مائعة باسم الرحمة.

ولا قاسية باسم القوة.

اللطيفة التدبيرية | اكتمال الأخلاق ليس في امتلاك خلق واحد، بل في وضع كل
خلق في مكانه

قد يتحول اللين إذا وُضع في غير موضعه إلى ضعف.

وقد تتحول الشدة إذا وضعت في غير موضعها إلى ظلم.

والحكمة أن تعرف:

متى تثبت؟

ومتى تلين؟

متى تعفو؟

ومتى تحمي الحدود؟

متى تحتمل؟

ومتى تقول: لا؟

ولهذا كان المؤمن محتاجاً إلى ميزان، لا إلى صفة منفردة يطبقها على كل شيء.

الرسالة الواقعية

لا تفخر بأنك «طيب دائماً» إن كان طيبك يضيع الحقوق.
ولا تفخر بأنك «حازم دائماً» إذا كان حزمك يجرح الناس بغير حق.
اسأل عن الخلق المناسب للموقف.
فالنضج الأخلاقي هو دقة وضع المشاعر والمواقف في مواضعها.
ثم يقول:
﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.

وهنا بعد وصفهم في مواجهة الخارج، يأخذك القرآن إلى علاقتهم بالله.
والعجيب أن القوة التي ظهرت في الميدان لها أصل خفي في المحراب.
إنهم ليسوا فقط رجال مواجهة.
إنهم رجال سجود.
وكان السورة تقول:

القوة التي لا تعرف كيف تنخي لله قد تخرف إلى الكبر.
إضاءة لغوية | ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾
ركع جمع راعع.
وسجد جمع ساجد.
وجاءت الصيغتان في هيئة توجي بكثرة هذا الحال وظهوره في حياتهم.
والركوع والسجود ليسا مجرد حركتين جسديتين.
إنهما تجسيد لمعنى العبودية.
فالوجه الذي قد يعتز أمام الباطل هو نفسه الذي يُوضع على الأرض لله.
وهنا سر التوازن.
من سجد لله حقاً لا يحتاج أن يسجد للناس.
ومن عرف عبوديته لله تحرر من عبودية كثير من الأشياء.

اللطيفة التدرية | السجود يصنع نوعاً فريداً من الكرامة

في السجود تكون أقرب صورة جسدية للتواضع.
جهتك على الأرض.
لكن هذا الانخفاض لله يصنع في الروح ارتفاعاً عن التذلل لغيره.
وكلما صح السجود، خفت في القلب عبودية المديح.
وعبودية المال.
وعبودية المنصب.
وعبودية الخوف من البشر.

ولهذا لا تناقض بين:

﴿أَشَدَّاءُ﴾

و:

﴿سَجْدًا﴾.

بل قد يكون الثاني هو سر الأول.

الرسالة الواقعية

إذا شعرت أن الدنيا بدأت تكبر في قلبك، عد إلى السجود.

فالسجود يعيد الأشياء إلى أحجامها.

أنت على الأرض.

وربك فوق خلقه، سبحانه كما يليق بجلاله، لا يشبهه شيء.

ومشكلاتك، مهما عظمت، تحت سلطانه.

والذي يخرج من السجود وهو يتذكر هذه الحقيقة لا يعود إلى الحياة بالقلب نفسه.

ثم يكشف القرآن ما يطلبونه:

﴿يَتَنَوَّنُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾.

إضاءة لغوية | ﴿يَتَنَوَّنُونَ﴾

الابتغاء هو الطلب بقصد واجتهاد.

أي إن عبادتهم ليست عادة جسدية.

هناك طلب داخلي يحركها.

لكن ماذا يطلبون؟

فضلاً من الله.

ورضواناً.

فالفضل هو عطاؤه الزائد على استحقاق العبد.

والرضوان هو رضاه سبحانه.

وهنا ترتقي الغاية.

إنهم لا يعبدون الله لكي يراهم الناس عباداً.

بل يريدون ما عند الله.

اللطفية التدبيرية | أعلى الطموح أن يصبح رضا الله نفسه مطلوباً لا مجرد وسيلة

قد يعبد الإنسان الله لأنه يريد تفريج كربة.

وهذا مشروع.

وقد يطلب رزقاً.

أو شفاءً.

أو جنة.

وكل ذلك من الخير.

لكن هناك مرتبة ترتفع فيها الروح حتى تصبح تقول:

يا رب، أريد رضاك.

أي إن أعظم مطلوب ليس شيئاً يعطيه الله لك.

بل أن يرضى الله عنك.

وهذا يذكرنا بمنتصف السورة:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ما كانوا يبتغونه هنا قد شهد الله لبعضهم بتحقيقه هناك.

الرسالة الواقعية

اسأل نفسك أحياناً قبل العمل:

لو لم يعطيني الله من هذا العمل مكسباً دنيوياً ظاهراً، هل يكفيني أنه يرضيه؟

هذا السؤال يطهر النية من كثير من الشوائب.

ثم يقول:

﴿سَيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.

إضاءة لغوية | ﴿سَيَاهُمْ﴾

السَّيْمَا هي العلامة.

والآية لا يلزم أن تُحصر في علامة جسدية مخصوصة على الجبهة، كما قد يتوهم بعض الناس.

فقد ذكر المفسرون في أثر السجود ما يظهر من الخشوع والسمت والنور وحسن الهيئة الناتج عن العبادة، مع ما قد يكون للسجود من أثر ظاهر.

والأعمق أن السجود الحق يترك علامة.

لا ينبغي عبادة عظيمة متكررة أن تدخل حياة الإنسان وتخرج منها دون أثر.

اللطيفة التدريبية | الصلاة التي لا تعبر من الجبهة إلى الأخلاق لم يكتمل أثرها

إذا سجد الإنسان عشرات آلاف المرات في عمره، فلا بد أن نسأل:

ماذا صنعت هذه السجودات؟

هل كسرت الكبر؟

هل رقت القلب؟

هل خففت الشهوة للظهور؟

هل جعلت اللسان أنظف؟

هل جعلت الوجه أهدأ؟

فأثر السجود ليس مجرد موضع على الجلد.

أعظم أثره أن تقوم من الأرض أقل كبيراً مما سجدت.

الرسالة الواقعية

لا تشغل بعلامة السجود على وجهك بقدر انشغالك بعلامته في خلقتك.

إذا انتهيت من الصلاة، فاسأل:

ما الذي ينبغي أن يتغير في سلوكي الآن لأنني كنت قبل دقائق بين يدي الله؟

ثم يقول:

﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾.

أي هذا وصف لهم فيما سبق من الكتب.

ثم تأتي الصورة الأخرى:

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾.

وهنا تتحول خاتمة السورة إلى لوحة زراعية مذهشة.

إضاءة لغوية | ﴿شَطْأَهُ﴾

الشطاء هو فراخ الزرع وما يخرج حول الأصل من فروع ونبات جديد.

تخيل بذرة صغيرة.

ثم ساقاً.

ثم يخرج حولها شطؤها.

ثم تبدأ الفروع في دعم بعضها.

وهذه الصورة تختصر قصة الدعوة كلها.

بدأ النبي ﷺ واحداً يحمل الرسالة.

ثم آمن واحد.

ثم اثنان.

ثم جماعة.

ثم صار المؤمنون أمة.

البذرة لم تصبح شجرة دفعة واحدة.

بل نمت.

هذه الصورة تصصح ولعنا بالنتائج الفورية.

الزراع لا يقفز من البذرة إلى السنبلة.

بينهما:

خروج.

وتفريع.

وتقوية.

واشتداد.

واستواء.

وهكذا النفوس.

وهكذا المشاريع.

وهكذا الحضارات.

وهكذا الدعوات.

والاستعجال يريد الثمرة دون المرور بالمراحل.

أما سنة النمو فتقول:

لكل قوة طفولتها.

الرسالة الواقعية

إذا كنت تبني شيئاً صالحاً، فلا تحتقر مرحلة الضعف.

ربما تكون الآن في مرحلة:

﴿أُخْرِجَ شَطَأُهُ﴾.

لا في مرحلة الحصاد.

ما دام النمو صحيحاً، فصغر البدايات ليس مشكلة.

المشكلة أن يتوقف النمو.

ثم يقول:

﴿فَازَرَهُ﴾.

إضاءة لغوية | ﴿فَازَرَهُ﴾

المؤازرة هي المعاونة والتقوية.

أي إن فروع الزرع نمت حتى قوى بعضها بعضاً.

ويا لها من صورة للأمم.

ليس المطلوب أن ينو كل فرد منعزلاً.
بل أن يتقوى المؤمن بأخيه.
العالم يعلم.
والقادر ينصر.
والغني يبذل.
والحكيم يسدد.
والضعيف يجد من يقويه.
فالمجتمع الإيماني ليس أفراداً متجاورين.
بل زرع يؤازر بعضه بعضاً.

اللطيفة التدريبية | بعض ضعفنا يأتي لأن كل ساق تريد أن تكون شجرة وحدها

حين تضع المأازرة، تضع طاقة هائلة.
قد يملك شخص ما لا يملكه الآخر.
لكن الغيرة تمنع التعاون.
أو الكبير.
أو حب الظهور.
والقرآن يرسم الصورة المعاكسة:
﴿فَازَرَهُ﴾.

أي إن نجاح الآخر لا يهددني.
بل يقوي الحقل كله.
وهذه من أصعب أخلاق العمل الجماعي.
أن تفرح أن يقوى غيرك لأن قوته تضيف إلى الرسالة، لا تسحب منك قيمتك.

الرسالة الواقعية

في أي مشروع جماعي، أسأل:
هل أقوي الناس حولي؟
أم أحتاج نفسياً إلى بقائهم أضعف مني؟
هذه مرآة صعبة.
فالقائد الحقيقي يصنع من حوله أقوياء.
أما الذي يخشى من ثوهم، فقد صار مشروعه ذاته أسيراً للأناء.
ثم قال:

﴿فَاسْتَغْلَظْ﴾.

أي انتقل من الرقة إلى الغلظ والقوة.

ثم:

﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾.

إضاءة لغوية | ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾

السوق جمع ساق.

أي قام الزرع واستقام على سيقانه بعد أن اشتد.

والصورة هنا صورة الاستقلال بعد الاحتياج.

كان ضعيفاً يحتاج إلى الرعاية.

ثم صار قادراً على القيام.

وهذا وصف بديع لنضوج الأشخاص والمشاريع والأمم.

علامة التربية الناجحة أن الذي ربيته يستطيع أن يقف.

لا أن يبقى معتمداً عليك إلى الأبد.

اللطفية التدريبية | التربية الحقيقية لا تصنع تابعاً دائماً، بل إنساناً يستطيع الوقوف

المعلم الذي ينجح لا يصنع نسخة محتاجة إليه في كل خطوة.

والأب الناجح لا يريد طفلاً عاجزاً إلى الأبد.

والقائد الناجح لا يبني مؤسسة تموت إذا غاب.

النمو الصحيح يصل إلى:

﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾.

أي أصبح البناء قوياً من داخله.

وهذه صورة نحتاجها في كل مشروع إصلاحى.

الرسالة الواقعية

إذا كنت مسؤولاً عن شخص أو فريق، اجعل من أهدافك أن يصلوا إلى مرحلة يستطيعون فيها العمل جيداً دون اتكاء كامل عليك.

القوة التي تحتكرها ليست بناءً قوياً.

القوة التي تنتشر فيمن حولك هي التي تصنع الاستمرار.

ثم قال:

﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾.

والزراع يعرف ما كان عليه الزرع في أوله.

بذرة صغيرة.

ثم يراه قائماً قوياً.

فيعجبه.

وهذا الإعجاب ليس غروراً بالزرع.

بل فرح بنمو ما تعبت في رعايته.

اللطيفة التدريبية | أجمل الفرح أن ترى شيئاً صالحاً كان صغيراً بين يديك ثم يكبر

طالب تعلم.

ابن استقام.

كاتب اكتمل.

مشروع خيري نما.

إنسان أعنته على تجاوز ضعفه ثم رأته واقفاً.

هذه فرحة تشبه فرحة الزارع.

والقرآن اختار الزرع لأن الزارع يعرف جيداً أن النمو لا يصنعه وحده.

هو يحرث ويستقي.

لكن من الذي يشق البذرة؟

ومن الذي يخلق الحياة؟

الله.

وهذا يحفظ الفرح من الغرور.

الرسالة الواقعية

افرح بالنمو.

لكن لا تنسب كل شيء إلى نفسك.

قل:

أنا بذلت.

لكن الله هو الذي أنبت.

هذه الجملة تحفظ الإنجاز من أن يتحول إلى صنم للأنا.

ثم يقول:

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾.

أي إن نمو المؤمنين وثباتهم وقوتهم مما يغضب أعداء الرسالة.

ولا يحتاج المؤمن إلى أن يجعل إغاية الآخرين غاية شخصية في كل تصرف؛ فالسباق يصف أثر ظهور الجماعة المؤمنة وقوتها، لا يدعو إلى صناعة سلوك طفولي غايته استفزاز الناس.

والفارق مهم.

فالمؤمن يبني.

ويثبت.

وينمو.

فإن غاظ ذلك عدو الحق، فذلك أثر من آثار القوة، لا أن تصبح حياة المؤمن كلها رد فعل على غيره.

اللطيفة التدريبية | أفضل رد على من يريد إطفاءك أن تنمو

ليس كل خصم يستحق جدالاً.

ولا كل إساءة تستحق ردّاً.

أحياناً يكون أبلغ جواب:

أن تستمر.

أن تنتج.

أن تصلح.

أن تزداد علماً.

أن تتحول من بذرة صغيرة إلى زرع قائم على سوقه.

هناك انتصارات لا تحتاج إلى كلمة واحدة.

الرسالة الواقعية

حين تواجه من يقلل منك، لا تجعل مشروحك إثبات خطئه.

هذا يبقيه في مركز حياتك.

اجعل مشروحك أن تفعل الصواب بأفضل صورة.

فإذا نجحت، كان نجاحك جواباً كافياً.

ثم تأتي آخر جملة في السورة:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

يا لها من خاتمة.

سورة اسمها الفتح.

وفيها نصر.

وبيعة.

وجنود.

ومغانم.

وظهور دين.

ثم ما آخر كلمة كبرى تحملها لنا؟

ليست الأرض.

ولا القوة.

بل:

مغفرة.

و:

أجر عظيم.

وكان القرآن يريد أن يصحح للمرة الأخيرة معنى الفتح:

إذا فُتحت لك الدنيا كلها، ولم تُغفر ذنوبك، فما الذي فُتح حقاً؟

وإذا فقدت بعض الدنيا ثم أدركتك المغفرة والأجر العظيم، فمن الخاسر؟

إضاءة لغوية | ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾

الوعد هو الإخبار بخير مستقبل على وجه الالتزام.

لكن حين يكون الواعد هو الله، يختلف وزن الكلمة كلها.

لأن البشر قد يعدون ثم يعجزون.

أما الله فلا يعجزه شيء.

والآية تعود بنا إلى محور السورة منذ بدايتها:

الوعد.

وعد بالفتح.

وعد بالدخول.

وعد بالمغانم.

وهنا الوعد الأخير والأبقى:

المغفرة والأجر العظيم.

وكان كل الوعود الدنيوية كانت تدريجياً للقلب حتى يثق بالوعد الأخرى.

اللطفية التدريجية | أعظم ما تريد سورة الفتح أن تفتحه لك هو باب الثقة بوعده الله

في أولها قال:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾.

مع أن المشهد لم يكن قد كشف تمام الفتح.

وفي أثائها قال:
﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾.

وفي آخرها:
﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾.

السورة كلها تريبك على أن تقرأ الحياة من جهة صدق الله لا من جهة تقلب المشاهد فقط.

المشهد يتغير.

والوعد لا يتغير.

الإنسان يرى اليوم شيئاً وغداً نقيضه.

أما ما عند الله فلا تُسقطه تحولات الطريق.

الرسالة الواقعية

اجعل أكبر رأس مال روحي في حياتك:

الثقة بوعد الله.

لا ثقة ساذجة تلغي السنن والأسباب.

بل ثقة تعمل.

وتصبر.

وتراجع نفسها.

وتتوب.

وتبذل.

ثم لا تجعل تأخر الثمرة اتهاماً للوعد.

بدأنا السورة ونحن نظن أن السؤال هو:

كيف يأتي النصر؟

ثم أخذتنا السورة قليلاً قليلاً حتى اكتشفنا أن السؤال أعمق بكثير:

أي قلب يستطيع حمل النصر؟

في البداية:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

فعلبتنا أن الفتح قد يبدأ قبل أن نفهمه.

ثم:

﴿أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فعلبتنا أن أول ميدان للفتح هو القلب.

ثم:

﴿لِيَزِدَّادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾.

فعلبتنا أن المحنة قد تضيف إلى الإيمان.

ثم:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

فعلبتنا ألا نحصر القوة فيما تراه العين.

ثم:

﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.

فعلبتنا أن الوفاء يبني صاحبه قبل أن يبني الطريق.

ثم كشفت المتخلفين.

وأعذارهم.

وسوء ظنهم.

وتزيين نفوسهم.

حتى تعلمنا أن أخطر عدو قد لا يكون خارج الصف، بل داخل القلب حين يتقن تبرير نفسه.

ثم أتاحت لهم فرصة أخرى:

﴿سُدُّوعُونَ﴾.

فعلبتنا أن السقطة ليست نهاية الإنسان.

ثم وقفت بنا تحت الشجرة:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فارتفع هدف الرحلة كلها من فتح مكة إلى رضا الله.

ثم كشفت السر:

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

فعرفنا أن السماء لا تنتظر فقط إلى حركة اليد، بل إلى الحقيقة التي حركتها.

ثم:

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾.

فعلبتنا ألا نحول عجزنا إلى حكم على قدرة الله.

ثم:

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾.

فعلبتنا أن بعض الانتصارات معارك لم تقع.

ثم كشفت لنا المؤمنين الذين لم يعرفهم الصحابة:

﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾.

فعلبتنا أن وراء قرارات الله معلومات ليست في أيدينا.

ثم اختصرت درس الحديبية كله:

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾.

وكانها تريد أن تظل معك بعد انتهاء السورة.

كلما وقفت أمام قدر لا تفهمه.

كلما تأخر باب.

كلما اضطرت إلى الرجوع من طريق ظننته طريقك.

كلما رأيت ظاهراً لا ينسجم مع ما كنت ترجوه.

تذكر:

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾.

ثم لم تترك السورة عند سؤال التأخير.

بل أعطتنا صورة البناء كله:

﴿كَرَّرَ أَنْجَحَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾.

وهكذا ربما يكون هذا هو السر الأجل في السورة:

الفتح نفسه يشبه الزرع.

لا يبدأ يوم ترى الثمرة.

يبدأ يوم توضع البذرة في التراب.

بل قد يبدأ في اللحظة التي يظن فيها من لا يعرف سنن الزرع أن البذرة اختفت.

تختفي تحت الأرض.

ثم تنشق.

ثم يخرج الشطاء.

ثم يتقوى.

ثم يستغلظ.

ثم يستوي.

ثم يعجب الزراع.

وهكذا كانت الحديبية.

رآها بعض الناس في لحظة رجوعاً.

ورآها الله فتحاً.

لأن الإنسان كان ينظر إلى سطح الأرض.

والله يعلم ما يحدث تحت التراب.

وهذه سورة الفتح كلها في معنى واحد:

لا تستعجل الحكم على بذرة دفنها الله اليوم في تراب القدر؛ فقد يكون اسمها عندك
خسارة، واسمها عند الله: فتح.

وهنا تنتهي رحلتنا في آيات السورة، ولكن يبقى آخر سؤال تتركه في القلب:

حين يؤخر الله عنك ما تريد، هل ستظل تثق به حتى ترى ما كان ينو في الخفاء؟